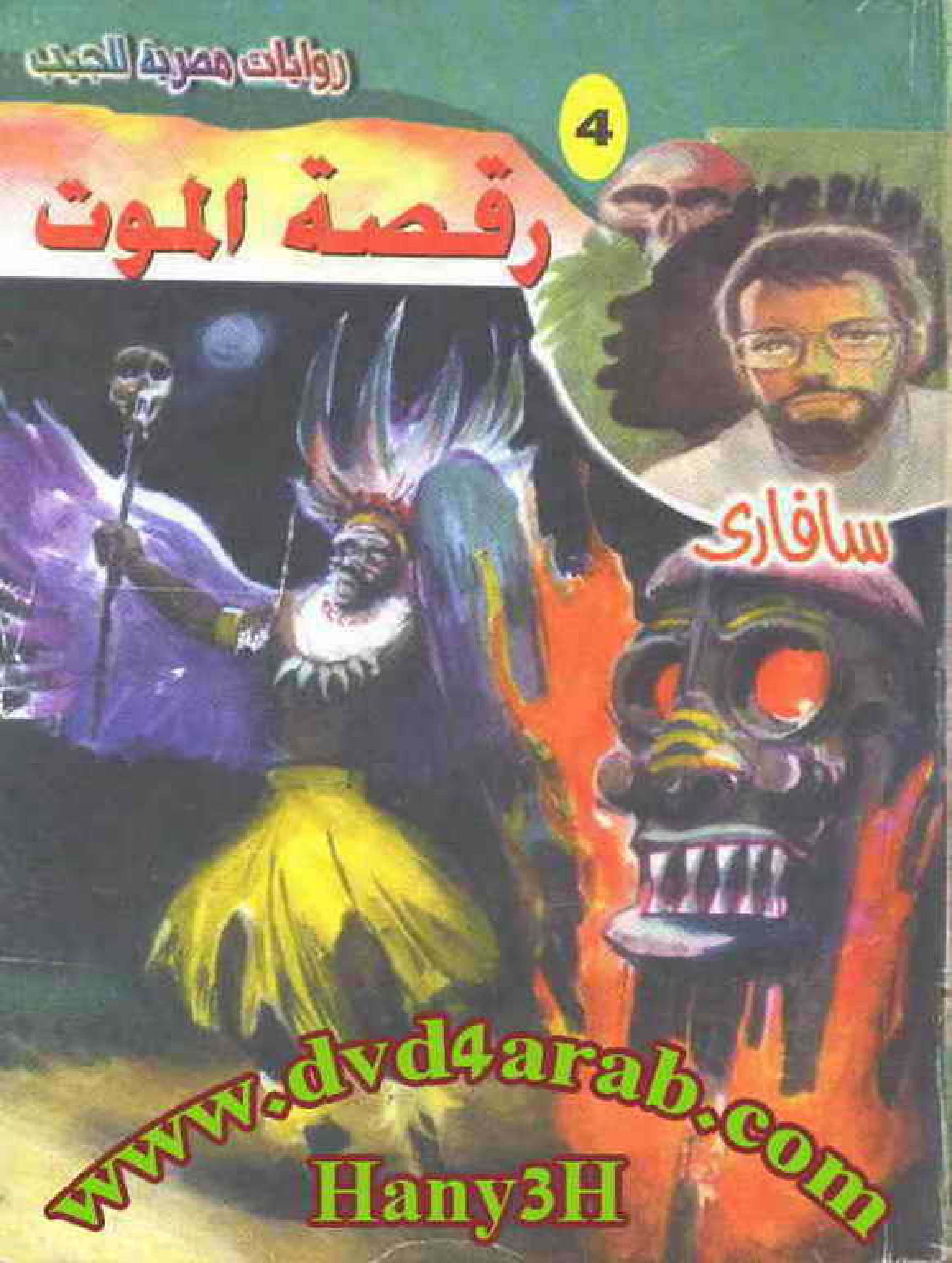


روايات مصرية للجيب
4
رقصة الموت
سافاري
www.dvd4arab.com
Hany3H

مقدمة

(سافارى) مصطلح غربى تم تحريفه عن كلمة (سفريَة) الغربية .. وحين يتحدثون عن الـ (سافارى) فهم يتحدثون عن رحلات صيد الوحوش فى أدغال (إفريقيا) ..

لكن وحدة (سافارى) التى سنقابلها ها هنا كانت تصطاد المرض فى القارة السوداء .. ووسط اضطرابات سياسية لا تنتهى .. وبيئة معادية .. وأهال متشككين ..

بطلنا الذى سنقابله دومًا ، ونألفه ، ونتعلم أن نحبه هو د.(علاء عبد العظيم) .. شاب مصرى ككل الشباب .. اختار أن يبحث عن ذاته بعيدًا وسط أدغال (الكاميرون) ، وفى بيئة غريبة وأمراض أغرب وأخطار لا تنتهى فى كل دقيقة ..

وفى هذه الروايات نقرأ مذكرات د.(علاء) .. نعيش معه فى ذلك العالم العجيب الذى لم تنجح الحضارة فى تبديل معالمه ..

سنلقى الكثير من الفيروسات القاتلة .. والسحرة المجانين .. وأكلة لحوم البشر .. والمرتزقة الذين

لا يمزحون .. وسارقى الأعضاء البشرية .. والعلماء المخابيل ..

سنلقى كل هذا .. ونلقى محاولات طبيبنا الشاب كى يظل حيًّا .. وكى يستطيع فى الوقت ذاته أن يظل طبيبًا ..

تعالوا نلحق بوحدة (سافارى) فى (الكاميرون) ..

تعالوا ندخل الأدغال ونجوب (السافانا) ونتسلق البراكين ..

تعالوا نواجه المرض مع فريق (سافارى) ..

* * *

الجزء الأول

عن البعثات التى لا تعود

بقلم د. علاء عبد العظيم

« البعثات التى لا تعود .. يا له من موضوع شائق !
أعرف أنه يروق للجميع ، وأعرف أنهم سيقومون بتأبينى كما يجب فى نقابة الأطباء ، ولربما أطلقوا اسمى على (درابزين) السلم هناك تخليدًا لذكراى ..

« لكنى ـ فى هذه المرة ـ أعتذر بصدق .. أرجوكم أن تجدوا واحدًا غيرى ! »

١ ـ سجن بلا قضبان ..

مرحبًا بكم ..

أنتم جميعًا ها هنا معى كما أرى ، وإن هذا ليزيل تلك الوحشة ـ الوحشة الرهيبة ـ التى تمزقنى هنا فى هذه البقعة النائية ..

إنك لتجد عربيًا فى كل بقعة من بقاع الأرض .. يمكنك أن تجد عربًا فى (اليونان) .. فى (أمريكا) .. فى (روسيا) .. فى (نيوزيلندا) .. لكنى ـ أؤكد لك ـ لن تجد عربًا ها هنا سواى وصديقى التونسى ..

صحيح أننى اعتدت المكان ، ولم تأكل النمور مؤخرتى بعد ..

صحيح أن لى أصدقاء أحبهم وآمل أن يحبونى ..

صحيح أن المغامرات السابقة أضفت علىّ بعض الشهرة هنا ..

لكنى ما زلت أشعر بالغربة .. أشعر باختلاف الطباع ، بل واختلاف الدم ذاته بينى وبينهم .. إن الوطن وأهله لمعان مبهمة ، لا يمكنك فهمها وأنت فى وطنك ..

بل ولربما سخرت منها .. لكنها ها هنا تغدو حقيقية إلى حدَ أليم ...

لهذا أقول : مرحبًا بكم ...

★ ★ ★

ومع بعد المسافة تبدو ظاهرة (التفسير التلسكوبى) للأمور جلية واضحة .. كل شىء يتضخم ويغدو مرعبًا حين ترمقه من هنا ..

مثلاً خذ عندك خطابات أمى ..

لقد صارت أقل عددًا .. وأقل كيفًا .. ثم إنها تحوى تلك العبارات الغامضة المقتضبة على غرار (ولا تنس أن تدعو لى) ، و(أتمنى ألا أموت قبل أن أراك) ، و(لقد أطمأننت عليك على الأقل) !

تلك اللهجة التى توحى بشىء ما .. ومع البُعد تغدو يقينًا لا ريب فيه .. بالتأكيد هى تموت أو ـ على أحسن الظروف ـ مصابة بسرطان قولون متقدِّم ..

وتشدَ شعر رأسك ولحيتك وتتمنى أن تستقيل كى تلحق بها .. لكنهم لا يمزحون هنا .. لا إجازات إلا حين يأتى وقتها .. ولا استقالات إلا بعد دفع راتب ثلاثة أشهر كغرامة ..

تهرع إلى كابينة الهاتف وتدسَ مئات العملات المعدنية .. لا تنس أنك فى (الكاميرون) .. ومجرد سماع كلمة (آلو) من وطنك يكلفك مبلغًا لا بأس به ..

لكن ـ كالعادة ـ يفشل ذلك الاختراع الأحمق فى أداء مهمته .. فتغادر الكابينة وأنت تلعن (جراهام بل) على عدم دقته فى اختراع الهاتف .. وتلوم الفقر الذى جعل أمك لا تشترى جهاز (فاكس) ..

مثال آخر ؟ خذ عندك خطابات أخى ..

واضح تمامًا من عباراته المنتقاة أنه تشاجر مع امرأته مرارًا .. لكن (التفسير التلسكوبى للأحداث) يجعلك على يقين بأنه طلقها أو ـ على أحسن تقدير ـ أطار رقبتها بـ (مخرطة الملوخية) ..

وتوشك على الجنون ..

ترى هل هم يمارسون نوعًا من الرقابة على خطاباتهم رحمةً بأعصابك ، أم هم فعلاً بخير ؟ لن تعرف إلا حين تذهب هناك ..

وحتى ذلك الحين عليك بالانهماك فى عملك فى (سافارى) ..

من يدرى ؟ لربما لا تحتضر أمى بعد .. ولربما لم يقتل أخى زوجته بعد .. ولربما لم يتهاو بيتنا الآيل للسقوط .. ولربما لم تنفجر مواسير الغاز .. ولربما لم تدهم سيارة مسرعة أختى .. ولربما لم تحترق عمتى بعد .. صحيح أنها احتمالات واهية .. لكنها واردة برغم كل شىء !

★ ★ ★

لقد فررت إلى (الكاميرون) من مخاوفى !

من قال إننى فررت ؟ لقد فررت من المقلاة إلى النار .. الفرار الحقيقى هو الذى تكون فيه أسرتك معك ..

الفرار الحقيقى هو الفرار من وخزات القلق الدائمة فى مؤخرة رأسك ، والسؤال الدائم : ماذا إذا ؟

عليك ـ يا (علاء) ـ أن تغرق همومك فى العمل ها هنا ..

★ ★ ★

والعمل ها هنا كفيل بإغراق الأسطول السادس الأمريكى كله وليس همومى فقط ..

إن الوطنيين ها هنا يحبون المرض إلى حدَ غير

مسبوق .. الفقر والجهل يتزوجان لينجبا ذرية تعسة لا تكفَ عن الأنين .. أمراض من نوع خاصَ قوامها العدوى وسوء التغذية .. لكنك لا تجد غالبًا أمراض المجتمع المترف مثل تصلب الشرايين ، وأمراض القلب والاكتئاب .. إلخ ..

وتذكرت ـ فى مرارة ـ كيف كانوا يعالجون الأمراض النفسية فى (أوروبا) بالملاريا .. حقًا ! كانوا يحقنون المرضى بالملاريا .. وعندئذ كان المريض لا يجد الوقت الكافى كى يجنَ .. وهو سلوك لا يخلو من الصواب فى رأيى .. إن الملاريا هى العلاج الفعال للاكتئاب ، ولأية أمراض نفسية أخرى ..

وكذا أمضيت الأيام بين تعلَم ما كنت أجهله ـ وهو كثير حقًا ـ وبين ممارسة بعض الأخطاء غير القاتلة ، وبين تلقَى لوم المدير على أشياء لا أذكرها بدقة ..

كانت هناك دورتان تدريبيتان على التعامل مع (الإيدز) ثم مع (عمى الأنهار) فى (ياوندى) .. وقد قمت بحضورهما .. وهى من الفرص النادرة التى يمكنك فيها الفرار من وحدة (سافارى) .. الحق أن (ياوندى) مدينة حديثة متقدمة ، ذات شوارع

واسعة ممهدة ، ومن العسير على من يراها أن يتصورَ أنها عاصمة هذا البلد المليء بالأدغال والوحوش والقبائل البدائية ..

إنها مشكلة إفريقيا كلها : عدم التجانس .. الثراء الفاحش والفقر المدقع جنبًا إلى جنب .. العلم والجهل جنبًا إلى جنب .. الحداثة والتخلف جنبًا إلى جنب .. أنا لم أر (أوروبا) ولا (أمريكا) لكنى أعتقد أنهما كالأوانى المستطرقة هناك .. الماء ينتقل من المستويات العالية إلى المستويات المنخفضة .. لا توجد فوارق شاسعة بين الناس فيما يتعلق بالثراء أو العلم أو الرعاية الصحية ..

لماذا ؟ وما السبب ؟ ما الذى فعلوه ولم نفعله نحن ؟

للأسف تحتاج الإجابة عن هذا إلى خبير فى الاقتصاد والعلوم السياسية ، ولِيس طبيبًا حديث السنّ يتحسَّس قدميه كى لا يقع فى مستنقع الأوبئة هذا ..

★ ★ ★

بدأت القصة فى أحد أيام الأربعاء .. وأنا لست ممن يتشاءمون من أيام بعينها .. لكن يوم الأربعاء هو - غالبًا - اليوم الذى تبدأ فيه مصائبى ، فلا يشذ عن القاعدة إلا لمامًا ..

كان هناك ذلك الاستدعاء المعروف عن طريق مكبّر الصوت ، يدعونا إلى قاعة الاجتماعات الكبرى على وجه الأهمية ..

وعرفت على الفور أن هناك كارثة ..

لكن ما هى ؟

★ ★ ★



٢ ـ خـذنى يا بروفســور ..

جلست فى القاعة المكيفة ، وبحثت عن (برنادت) من حولى كى تجلس جوارى كدأبها ، لكنها كانت فى ركن قصى تثرثر مع طبيب كندىّ أصلع ، ويبدو أنه كان يقول كلامًا شديد الطرافة .. لأنها لم تكف عن القهقهة وتغطية وجهها ..

تنهدت واسترخيت ، ورحت أرمق الجالسين ..

لقد تأخر البروفسور (بارتليه) مدير الوحدة عن القدوم ، لهذا راح الجميع يثرثرون .. ودوت بضع ضحكات .. فهذه الاجتماعات كانت فرصة لا بأس بها للفرار من عناء العمل لبضع دقائق ..

أخيرًا تدحرج البروفسور الشحيم إلى المنصة .. مشيته الوقور التى هى محاولة لهزّ أقل قدر من الدهن فى جسده ..

أمسك بمكبر الصوت وحيانا تحيته المعهودة :

ـ « كيف حالكم هناك ؟ »

دوّت بعض ضحكات مفتعلة .. فعاد يقول :

ـ « أرجو ألا تكون هناك مشكلات .. وأن يكون أداؤكم كما أرجو .. »

ثم تناول بعض الأوراق من سكرتيرته الحسناء .. وقال :

ـ « الآن .. لقد جمعتكم ها هنا بغرض البحث عن متطوعين .. هناك حملة يا سادة .. حملة لملاحقة وباء لعين فى الأدغال ، كما كان يفعل الصيادون قديمًا فى رحلات الـ (سافارى) .. »

وأنزل عويناته على أنفه ليقرأ ما فى الأوراق :

ـ ثمة تقارير من مركز الـ CDC وصلتنا أمس .. وكلها تتحدث عن تفاصيل وباء غريب ، بدأ يتحرك فى (سوفلاى) .. »

وطقطق بإصبعه كما يفعل زعماء (المافيا) فى الأفلام ، فأظلمت قاعة العرض ، ورأينا على الشاشة خريطة ثابتة كبيرة لـ (الكاميرون) وما حولها .. كان يشير إلى بلدة قريبة من الحدود مع (الكونغو) ..

قال بلهجة تقريرية رسمية :

ـ « هناك بعض قبائل (الكيكويو) فى هذا القطاع ..



وأنزل عويناته على أنفه ليقرأ ما فى الأوراق ،

ومن الواضح أنهم نزحوا قديمًا من (الكونغو) أو (جمهورية إفريقيا الوسطى) ..

والتقارير التى لدينا مختلطة .. لكنها تتحدث عن نوع من الجنون العامّ .. رقصات محمومة .. اعتداء على السلطات .. تحفز عام للقتال .. عدد لا بأس به من الوفيات .. لكنهم لا يسمحون بتشريح موتاهم .. »

ارتفع صوت وقور فى الظلام يتساءل بفرنسية مهشمة :

ـ « ولماذا لا تكون ثورة عادية جدًّا كثورات (الماساى) ؟ »

أما الصوت فلعلك تميزته .. إنه صوت البروفسور (آرثر شِلْبى) ـ بكسر الشين وتسكين اللام ـ يتحدث وسط دخان سيجاره .. أما (الماساى) فلعلك لا تعرف أنهم من أشرس وأشجع قبائل إفريقيا ، لكنهم ليسوا فى هذه المنطقة لحسن الحظ ..

قال (بارتليه) وقد تضايق نوعًا لمقاطعته :

ـ « إن (الكيكويو) يختلفون عن (الماساى) يا بروفسور (شلبى) .. وأنت أول من يعرف هذا .. إنهم مسالمون جدًّا .. ثم إنهم فى بحبوحة من الرزق

والطعام الوفير ، ولا يوجد ما يدفعهم إلى التمرد .. منظمة الصحة العالمية تعتقد بوجود وباء ما .. »

وطقطق بإصابعه ثانية .. لكن مشكلة ما جعلت الشرائح تنحشر فى جهاز العرض .. طقطق مرارًا لكن لا شىء سوى صورة الخريطة إياها تظهر وتختفى .. وتصاعدت ضحكات مكتومة مما أثار غيظه ..

قال فى فتور :

ـ « يبدو أن لدينا مشكلات مع جهاز العرض .. حسن .. كنت سأعرض عليكم صور العلماء الستة الذين أرسلتهم المنظمة إلى (سوفلاى) .. والذين لم يعد أحد منهم ، ولا يعرف أحد شيئًا عنهم .. »

دوّى صوت أحدهم ـ أتراه (مايرز) ؟ ـ يتساءل :

ـ « وما هى المشكلة فى إرسال طائرة هليوكوبتر هناك ؟ »

ـ « أنتم تعرفون القلاقل على الحدود .. إن احتمال سقوط الطائرة التى سنرسلها هو سبعون فى المائة .. لهذا صار الأمر على عاتقنا ، وصار من الضرورى أن نرسل حملة أخرى .. »

ثم ثبت عينيه على الصف الأول من الجالسين ، وقال العبارة التى انتظرناها جميعًا :

ـ « معنى هذا أننى انتظر منكم أن تتحمسوا ! »

وعقد كفيه بلهجة متحببة وقال :

ـ « من أول الشجعان الذى سينهض قائلاً : خذنى يا بروفسور ؟ »

بدا لى هذا الأسلوب مبتذلاً .. كما كانت تفعل عمتى معى وسنى ثلاث سنوات .. تعقد كفيها وتقول : « من الصبى اللطيف الذى سيلتهم القنبيط ولا يترك شيئًا فى طبقه ؟ »

والنتيجة دائمًا واحدة : لا أحد يستجيب .. لا حماس من أى نوع ..

فقط رحنا نتحاشى نظراته ، وقد اكتشف كل منا أن له قدمين ، وأن فى كل قدم منهما حذاء ..

عاد يقول فى لهجة لائمة :

ـ « هيه ؟ يبدو أننى سأشعر بخيبة الأمل .. »

هنا تطوع (هانز شيفرن) أستاذ علم المناعة بالكلام .. نهض وفى كياسة قال ما نتمنى جميعًا قوله :

ـ « مسيو (بارتليه) .. إن المهمة تبدو خطرة حقًا .. هناك علماء مفقودون ، ونحن لا نعرف شيئًا

تقريبًا عن (الكيكويو) فى (الكاميرون) .. إن الاحتمالات كثيرة ، ومن الواضح أننا سنتحرك دون حماية السلطات .. لهذا لا تطالب الشباب بما هو أكثر من طاقتهم .. »

أضاف (آرثر شلبى) مؤمنًا :

ـ « إن من يقبل هذه المهمة شجاع كالأسود .. لكن من يرفضها ليس بالضرورة جبانًا رعديدًا .. »

هنا عاد (بارتليه) يرمقنا فى اهتمام .. وعاد يقول :

ـ « حسن .. ما زلت بانتظار رأى شباب الوحدة .. »

ـ هنا ارتفعت يد .. يد صفراء .. وسمعنا صوتًا يقول بفرنسية (يابانية) رديئة جدًّا :

ـ « أنا معكم .. خذنى يا (بروفسور) ! »

نظر الجميع ليروا من هذا الأحمق .. لكنى تعرفت الصوت فورًا .. إنه (ساتو أوشيمو) الطبيب الباطنى اليابانى .. ويبدو أنه لم يتخلص بعد من روح (الكاميكاز) الانتحارية .. لقد كان (الكاميكاز) اليابانيون ـ فى الحرب العالمية الأخيرة ـ يركبون الطوربيد ليفجروه فى المدمرات الأمريكية ، وبعد

الحرب صار من بقى منهم أحياء سائقى سيارات أجرة ينسفون الزبائن عاثرى الحظ !

ـ « هذا رائع يا د. (أوشيمو) .. من أيضًا ؟ »

هنا ارتفعت يد أنثوية رقيقة ، وسمعت صوت (برنادت) الرقيق بدوره :

ـ « وأنا معكم يا بروفسور .. »

الحمقاء ! ليس هذا من حقها .. ولكن .. ليس من حقى كذلك أن أمنعها .. فالحقيقة المؤسية هى أن المرء لا يملك منع فتاة ليست أمه ولا أخته ولا خطيبته ولا زوجته ولا ابنته ، من عمل أى شىء ..

جاء دور اليد الثالثة ، وكانت لـ (بسام) .. ولم أجد الوقت الكافى لمنعه ..

أما اليد الرابعة فكانت لـ (آرثر شلبى) نفسه .. غريب هذا .. أحيانًا يبدو لى هذا الرجل شجاعًا حكيمًا ..

ـ « نرحب بك فى الفريق يا بروفسور (شلبى) .. »

ـ وصفق الجميع فى انفعال .. الواقع أن الإشعاع الـ (سايكوفيزيائى) قد تسرب إلى النفوس أخيرًا ، وجعل هناك جوًّا من الحماس وميلاً لا نهاية له للعطاء غير المحدود ..

لكن الشعاع لم يتسرب إلى روحى لحسن الحظ .

هنا سمعت البروفسور (بارتليه) يقول ، وعيناه تفتشان فى الصفوف :

ـ « ثمة واحد لم يتطوع بعد ، وكنت أتوقع أن يكون أول المشاركين .. صديقنا المصرى .. دكتور (عبد العظيم) .. لقد شارك فى كل حملاتنا الناجحة السابقة .. »

ـ ونظرت لى عيون متسائلة كثيرة ..

رفعت يدى اليمنى ، وابتسمت ابتسامة دبلوماسية قائلاً :

ـ « ... ... ! »

كان هذا هو ما سمعه القوم منى .. لأنى لم أقل شيئًا تقريبًا .. فقط حركت شفتى بكلماتٍ ما لا معنى لها ، لكنها تحمل معنى الاعتذار .. « حقًا لا أجد فى نفسى رغبة للاشتراك .. » أو شىء من هذا القبيل ..

تصاعدت شهقات الدهشة .. وسمعت ضحكة سخرية أو ضحكتين .. لكنى كنت قد صممت على الرفض ، دون إعطاء تفسيرات ..

كان النصاب قد اكتمل ، فقال البروفسور (بارتليه) :

ـ « حسن .. على الستة المتطوعين أن يلحقوا بى فى مكتبى ، كى نناقش ما أتوقعه منهم فى هذه المهمة .. »

وغادرنا القاعة فى كثير من الفوضى ..

لكنى كنت راضيًا عن نفسى أيما رضا .. فمن الشجاعة أن تقبل حملةً كهذه ، لكن الأكثر شجاعة أن ترفضها ..

الشجاعة العظمى هى ألا تخشى أن تبدو جبانًا ! ألاّ يجرفك حماس الآخرين الأهوج الذى يدفعك لتكون منهم ..

وكما توقعت سألنى (بسام) على الباب :

ـ « كنت أظنك تحب هذه الأشياء .. »

هززت كتفى ، وأنا أتراجع لأسمح لطبيب ضخم الجثة بالمرور :

ـ « أحبها نعم .. لكنى جئت ها هنا من أجل العلم ومن أجل تحسين دخلى .. ولم آت كى أموت .. إن مهنتى طبيب ، وليس من شأنى أن أقضى حياتى فى الأدغال أفرّ من التماسيح ، ويحاصرنى قراصنة الحرب البيولوجية .. »

ابتسم من وراء شاربه الكثّ ، وعاد يسألنى :

ـ « هل تعتقد حقًا أنها رحلة بلا عودة ؟ »

ـ كيف لى أن أدرى ؟ لكنها بالتأكيد رحلة مرهقة كئيبة .. »

وتفرق الجميع .. واتجه كل إلى عمله الذى كان يزاوله قبل الاجتماع ، فعدت أنا إلى عيادة الأمراض الباطنية مع د. (دولالوبولو) .. وهو من الأطباء الأفارقة المعدودين هنا كما تعلم ..

تبًا ! لو أنهم يدفعون لى قرشًا عن كل حالة ملاريا أراها ها هنا لصرت مليونيرًا منذ عام .. والملاريا هنا تأخذ كل الصور المريعة التى كنا نطالعها فى كتب الطبّ : ملاريا مخية .. حمى الماء الأسود .. ملاريا خبيثة .. حمى الصفراء المتقطعة ..

لكن الملاريا هنا ـ لحسن الحظ ـ تستجيب لعقار الـ (كلوروكين) وهى ظاهرة نادرة ، بعد ما تعلمت الملاريا مقاومة هذا العقار فى كل أرجاء الأرض ما عدا غرب إفريقيا .. والحقيقة المريعة هى أن الملاريا تتحول يومًا بعد يوم إلى مرض بلا علاج ..

ويواصل العلم ركضه ، وتواصل الملاريا ركضها

فى سباق محموم .. وكلما ابتكر العلماء مصيدة فئران أفضل ، جاء إلى الوجود فأر أكثر ذكاء بما لا يقاس ...

جلست جوار د. (دوالا) أراقبه وهو يفحص المرضى ، ويصدر تعليماته للممرضة بأخذ عينات الدم ، بينما أقوم أنا بوضعها على شرائح ..

سألنى دون أن ينظر لى :

ـ « لِمَ لَمْ تلحق بهؤلاء ؟ »

ـ « سئمت لعب دور (طرزان) .. لم ترسلنى أمى ها هنا لهذا الغرض .. »

ـ « أنت ذكى .. »

ـ « ولماذا ؟ »

ـ « لأن الطبيب الذى يرفض زيارة (الكيكويو) حين ينتابهم الهياج ، لهو طبيب ذكى حقًا ! »

تفحصت الشريحة التى قمت بصبغها تحت عدسة المجهر .. كنت قد تعلمت أخيرًا أن أنظر بعينين مفتوحتين ... فالنظر بعين واحدة يرهق العينين إلى حد مروع .. ابتلعت ريقى وسألته :

ـ « من هم (الكيكويو) ؟ أعنى ما هى عاداتهم ؟ »

ـ « إنهم مسالمون دومًا .. لكن ... »

ـ « إيجابى ! »

قلتها مقاطعًا .. فنظر متسائلاً ، وسرعان ما فهم أننى أتكلم عن الشريحة التى أفحصها .. فعاد يقول فى شىء من العتاب :

ـ « .. حينما يثور (الكيكويو) يكون الأمر مقلقًا بحق .. »

★ ★ ★

٢ ـ عن (الكيكويو) ..

ـ « هم أصلاً من (كينيا) .. مسالمون نشيطون لكنهم ماكرون وقادرون على أن يخدعوك دون أدنى تأنيب ضمير .. وهم وثنيون فى عقيدتهم الدينية يؤمنون بالسحر بشدة ، وقليلون هم المسافرون الذين ظفروا منهم بصورة فوتوغرافية .. فهم ـ (الكيكويو) ككل البدائيين يؤمنون بأن الكاميرا تسرق أرواحهم منهم ..

« انهم صداع مستمر للحكومات بسبب عادتهم فى الزراعة .. يحرقون غابة بأكملها ثم يزرعون الذرة والبطاطا مكانها ، وأدَّى هذا إلى اضمحلال الغابات فى كل مكان يوجدون فيه ..

« وعامة هم يسوون خلافاتهم فيما بينهم ولا يثقون بالحكومة أبدًا .. »

قلت لـ (دوالا) فى عدم فهم :

ـ « ما تقوله ينطبق على كل البدائيين ، ولست أرى

ما يخيف فيه .. فأنت لم تقل إنهم أكلة لحوم بشر مثل (الكيجانى) أو محاربون شرسون مثل (الماساى) و(الزولو) .. »

ابتسم كاشفًا عن أسنان لؤلؤية .. وقال :

ـ « هذا هو ما يخيف .. حين تتجه قبيلة مسالمة إلى العنف ، لك أن تتوقع شيئًا لا يمكن توقعه .. هل وباء من نوع جديد ؟ أم نبتة تسبب الهلاوس بدعوا فى تعاطيها ؟ »

ـ « هذا ما سيعرفه أولئك الشجعان .. ما لم يموتوا قبلها طبعًا .. »

نعم .. فالحقيقة أن هناك عادة بذيئة لدى حملات الاستكشاف هذه .. هى أنها لا تعود ، كأنما هذا واجب مقدس لا بد من القيام به .. وكان (ليفنجستون) هو مبتدع هذه العادة ، ومن يومها كفت الحملات عن العودة .. لا بد من مختفين .. ولا بد من رجل أبيض مجروح يظهر فى إحدى قرى السود يقول شيئًا لا يفهمه أحد ، ثم يموت ..

ورحت أواصل فحص عينات الدم ...

★ ★ ★

سمعت هدير مروحة الطائرة ، فخرجت إلى الفناء الخلفى ..

يجب أن أعترف ها هنا أننى ـ فيما يتعلق بالطائرات ـ أتحول إلى طفل صغير يوشك أن يثب فرحًا مع التصفيق باليدين .. لكننى حاولت التماسك والتظاهر بالوقار .. فالجميع هنا لا يبدون اهتمامًا ، كأن هبوط طائرة هليوكوبتر أمر لا يثير الشغف أو الفضول ..

كانت مروحتها الأفقية تهدر .. بينما أضواؤها تنعكس فى عيوننا فتعميها مؤقتًا ، وراحت معاطفنا ترفرف ، والأعشاب تتمايل فى جنون .. بينما الشىء العملاق يهبط فى تؤدة ليستقر على أرض الفناء الأسفلتية ..

ومن الباب خرج ثلاثة رجال يرتدون سترات زرقاء عليها شعار (سافارى) ، وبشىء من الجهد استطاعوا إنزال محفة عليها ما تبين لى ـ وسط الظلام ـ أنه جسد أسود عملاق ..

كان المريض حيًّا يرزق .. لكن عينيه تلتمعان وحدقتاه لا تكفان عن الدوران فى محجريهما ، وأدركت أنه مقيد ! معصماه مربوطان إلى جانبى المحفة ،

ومن الواضح أنه كفَّ عن المقاومة منذ فترة ، واسترخى جسده تمامًا .. لكن عينيه ظلتا تقاومان دون هوادة ..

دنوت من (بودرجا) الممرض الذى كان يرمق المشهد فى لا مبالاة وسألته :

ـ « ما هذا ؟ »

نظر لى ، ثم عاد يرمق عملية نقل المريض أو خطفه وقال :

ـ « هذا من رجال (كيكويو) .. وجدوه قرب (سوفلاى) .. »

ـ « وهل هذا كاف لتقييده كالخراف ؟ »

أشار إلى أنفه بإصبعه السَّبابة ، وهى إيماءة إفريقية قريبة من تحريك السَّبابة فى دائرة حول الصدغ عندنا .. ومعناها : مجنون ..

وقال باستمتاع :

ـ « إنه مجنون تمامًا يا دكتور .. كخرتيت انكسر قرنه .. »

حسن .. لقد تقدمت إفريقيا حقًّا .. كان المعتاد أن يقال إن هذا البائس مسحور وإن (داوا) قوية قد أصابته .. لكنهم اليوم يذكرون كلمة (جنون) ..

نظرت للرجل البائس .. حقًّا .. هاتان عينا مجنون .. لا يمكن إلاّ أن تكونا لمجنون .. ولكن ما سبب جنونه ؟

مشيت وراء المحفة إلى قسم الاستقبال ، حيث كان طبيب التخدير الإيرانى (محمد آرداش) يعدّ محقنًا ملأه بـ (البارالدهايد) ، ثم أفرغه فى إلية المريض .. أطلق هذا صرخة هائلة ثم بدأ يسترخى ، وشممت رائحة (البارالدهايد) الكريهة تفعم المكان .

هنا فقط ـ وقد نام هذا المسعور ـ أمكنهم أن يفكوا الحبال ، ويريحوا الجسد العملاق على السرير ....

كان عاريًا إلا من إزار جلدى يتدلى من بطنه إلى الركبتين ، وفى أذنيه كان القرطان المميزان لـ (كيكويو) .. قطعتان من الخشب الأسطوانى ، كبيرتان جدًّا حتى إن شحمة الأذن توشك أن تلامس الكتف .. وكان رأسه حليقًا تمامًا ، وحين فتح فاه لمحت أسنانه المدببة الشبيهة بأنياب التماسيح ..

قال (بودرجا) كأنما سمع أفكارى :

ـ « إنهم يبردون أسنانهم الأمامية لتبدو حادة مدببة .. »

هززت رأسى فى فهم ، على حين قال (آرداش) للممرضين وهو يتحسَّس نبض المريض :

ـ « لا بأس .. خذوه إلى العنبر .. واحرصوا على حراسته بعناية .. »

ثم نظر إلى ساعته ، وأضاف :

ـ « سيفيق بعد ساعات قليلة .. سنعطيه جرعات من الـ (بنزوديازبين) بعد هذا بانتظام .. »

وسمعنا هدير الهليوكوبتر ، وهى ترتفع عائدة إلى أرضها النائية .. نظرت لساعتى ووجدت أن النوم خير ما يمكن عمله ..

★ ★ ★

وفى الرابعة صباحًا صحوت على صوت الصراخ ..

إننى أعانى مشكلة مزمنة لا حل لها .. هى أننى لا أستطيع النوم بعمق حين يكون هناك صوت صراخ عال فى الردهة .. لهذا نهضت بثيابى الداخلية لأرى ما هناك ، ثم عدت كى أرتدى ثيابًا محترمة ، وخرجت إلى الردهة ..

كان هناك من يصرخون ، ويشيرون إلى جناح الأمراض العصبية إياه .. هرعت إلى هناك لأرى المشهد التالى :

ـ العملاق الأسود يقف فى وسط الممر ، وقد أحاط بذراعه العضلية الحديدية عنق إحدى الممرضات الفرنسيات .. وفى اليد الأخرى كان يحمل سكينًا عملاقًا يتناسب مع حجمه ..

كان يلوِّح بالسكين ، ويتراجع حتى ليوشك أن ينتزع عنق الممرضة ، التى كان الرعب قد جعلها أقرب إلى خرقة لا تملك حتى القدرة على الصراخ ، وراح يردِّد كلمات بلغة قبيلته الغريبة .. لكن معناها لا يحتاج إلى مترجم : تراجعوا .. لا يمنعنَى أحدكم من الفرار وإلا ذبحت هذه المرأة ..

المخيف هنا ليس السكين ولا الموقف .. المخيف أنه كان يضحك .. يتكلم وهو لا يكف عن القهقهة كاشفًا عن أسنانه البيضاء المدببة ..

كان خمسة من رجال (سافارى) وامرأتان يقفون فى الردهة عاجزين عن اتخاذ قرار صائب ..

وسمعت د. (براكلى) نائب المدير يقول وقد لحق بنا ..

ـ « لقد تحول المكان إلى سيرك .. من أين جاء هذا المعتوه بالسكين ؟ »



العملاق الأسود يقف فى وسط الممر ، وقد أحاط بذراعه العضليّة الحديديّة عنق إحدى الممرضات الفرنسيات ..

قلت وأنا أدسَ يدىَ فى جيب معطفى :

ـ « لا أدرى يا سيِّدى .. ربما كان يخفيها فى ثيابه .. »

ـ « ثيابه ؟ إنه عار تمامًا ! »

تنبهت إلى هذه النقطة ، فآثرت الصمت ورحت أرقب المشهد .. وتساءلت فى ضيق : لماذا لا يفعل أحدهم شيئًا ؟ ثم أدركت أننى (أحدهم) وأننى شابَ .. ولو كان على أحد أن يخاطر بحياته فهو أنا .. لكن كيف ؟

كيف الاقتراب من هذا المعتوه الضاحك دون أن يطير رقابنا أو رقبة الفتاة ؟!

كان يتراجع آتيًا بنوع من الحركات الراقصة بساقيه ، وهو لا يكفَ عن القهقهة .. وغد مرح حقًا ..

وغد مرح ، لكنه لا يعرف أن حارس الأمن الكاميرونى (ليوبولد) يدنو منه من الخلف .. ولو عرف لصار أقل مرحًا بالتأكيد ..

وتمَ كل شىء بكفاءة غير عادية ..

ألصق (ليوبولد) فوهة مسدسه بمؤخرة رأس العملاق ، وضغط الزناد .. واهتز المكان بصوت

الطلقة ، وراحت آذاننا تتذبذب كأنما عنكبوت مشاغب قد اختارها لينسج خيوط بيته ..

كانت هناك دماء .. لكن رأس العملاق كان يعلو رأس الفتاة بمسافة لا بأس بها ، فلم تؤذها الطلقة الموجهة لأعلى طبعًا .. وسرعان ما ارتخت الذراع وهوى ـ كالجبل ـ على الأرض .. وعلت صرخات الفتاة لتزيد حالة آذاننا سوءًا ..

هرع د. (كلارك) ليخطو فوق جسد العملاق ، وكان رجل الأمن واقفًا فى بلاهة والمسدس فى يده والدخان ما زال يصّاعد منه ..

قال له فى توتر :

ـ « يا لك من أحمق ! كان بوسعك أن تضربه بقبضة المسدس على رأسه كما يفعلون فى السينما ! »

قلت وأنا أساعد الممرضة المتلاشية على التماسك :

ـ « لم يكن ليضمن النتائج .. هذا العملاق يحتاج إلى قنبلة كى تفقده وعيه . ولو لم تؤثر فيه الضربة لما كانت الفتاة بيننا .. »

وقفنا نرمق المشهد الدامى .. دماء متناثرة .. شظايا مخ مخلوطة بفتات عظام .. رائحة بارود ...

قال د. (كلارك) وهو يتأمل كل هذا :

ـ « أية فوضى ! إن لى بضع كلمات مع حراس الأمن ها هنا .. لقد أنذرناهم أن المريض هائج وخطر .. »

ـ « لقد أزالوا أثر إهمالهم .. غسلوه بالدماء لو كان لى أن استعمل هذه العبارة »

ـ « ولكن ما سر جنونه ؟ »

حقًا ما سر جنونه ؟

ووقفنا فى بلاهة لا تقل عن بلاهة رجل الأمن ، نرمق آثار هذه المذبحة ، وشعرنا جميعًا أن شيئًا رهيبًا ينتظرنا .

* * *

٤ـ انتظـــار يطـــول ..

راحت محركات الهليوكوبتر تهدر ، على حين راح العمال ينقلون متاع الحملة إلى داخلها .. ووقف فريق العمل المكون من ستة أفراد ، عرفنا منهم (برنادت) و(شلبى) و(أوشيمو) و(بسام) .. وكانوا يرتدون بذلات (سافارى) .. أعنى ثيـاب الصيد فـى الأدغـال طبعًا ..

كانوا متحمسين وقد احمرّت وجناتهم انفعالاً ، وبـدا عليهم أنهم يعتبرون أنفسهم شهداء الحقيقة ..

دنا بروفسور (بارتليه) منهم ، وقـد فتـح معطفـهُ مبرزًا كرشـه العمـلاق الـذى يتقدمـه دومًـا فـى سـبل الحياة .. وراح يتأكد من أنهم يعرفون حقًـا مـا ينبغـى القيام به ، ولم ينس أن يعهد بالقيادة لـ (آرثر شلبى) أكبرهم سنًّا وأكثرهم علمًا .. كما أعطاه جهاز لاسلكى يسمح بتغطية دائرة لا بأس بها ، وكان علـى الفريـق استكمال الرحلة على الأقدام من (سوفلاى) ..

اقتربت منه ، وانتظرت حتى أنهـى سيل الفرنسية الذى انهال به على رءوسهم جميعًا ، ثم قلت لـه فـى أدب :

ـ « سيِّدى .. إننا لم ننتظر تقرير تشريح جثة رجل (الكيكويو) .. »

نظر لى كأنما نسى الموضوع ، ثم قال فى لا مبالاة :

ـ « التشريح لـن يضيـف جديـدًا .. لـو كـان الأمـر تسممًا بنبات محلِّى لا نعرفه ، أو عدوى بفيروس ما .. فمـا زال علينـا أن نذهـب لنحقق فـى الأمـر .. نجمـع العينات ونسمع تواريخ الحالات .. »

وأضاف أحد أمثلته المحببة :

ـ « لقد تقدمت الحرب كثيرًا ، لكن المشاة هـم مـن يحتل المواقع ويؤمن الإمدادات .. »

هززت رأسـى مطريًـا حكمتـه ، ثـم اتجهـت إلـى (بسام) ، وتبادلنا نظرة قالت الكثير .. فنحن عربيان .. لنا نفس التاريخ ، ونضحك لنفس الدعابات ، ونسمع ذات الأغانى ، ونصوم فى ذات الشهر ، ونصلى لـذات القبلة .. كل هذه أشياء تبدو عاطفية سخيفة .. لكنك فى الغربة لا تجدها بهذا السخف .. صدقنى ..

عُدْ سالمًا يا (بسّام) .. فأنت الوحيد هنا الذى يجرى دمه فى عروقى ..

ثم نظرت إلى (برنادت) ، وابتسمت مشجعًا ، فكوّرت أنفها بأسلوب (التشنيكة) المعهودة لديها .. مرة أخرى كان هذا أبلغ من أية كلمات تُقال .. عودى سالمة يا (برنادت) .. وأنت تعرفين السبب ..

بعد هذين العزيزين لم أعد أهتم كثيرًا بما يحدث للآخرين .. لرُبما سرّنى أن أتصور (آرثر شلبى) - بكسر الشين - مقيدًا بالحبال فى قدر يغلى ماؤه ، فيما يرقص رجال (الكيكويو) حوله بالرماح ..

لكن (الكيكويو) - للأسف - لا يأكلون لحم البشر ..

راحت مراوح الهليوكوبتر تهدر بسرعة أكبر ، وراحت معاطفنا تتطاير ، والغبار يعمى عيوننا ..

فريق (سافارى) الجسور يصعد إلى الوحش الهادر .. و(بودرجا) يقف أمام الطائرة ليأتى بذراعه حركات سخيفة لا معنى لها ، لكنه يراها فى الأفلام السينمائية .. لا بد من رجل يلوح أمام الطائرة وإلا انفجرت فى الجو .. هذا هو ما يظنه ..

ثم يرتفع الديناصور الحديدى حاملاً حمولته الثمينة ..

ودمعت عيناى وأنا أرقبه وهو يرحل ...

كان ذلك الشعور فى مؤخرة عنقى .. شعور بانتصاب الشعيرات هناك .. نوع من الكهرباء الاستاتيكية لا أستطيع وصفه .. لكنه يحدث دائمًا كلما فارقت من لن أراه مرة أخرى ...

هذه الحملة لن تعود ...

يمكننى أن أراهن على هذا ....

★ ★ ★

كان (جيديون) أستاذ علم الأمراض فى المشرحة كدأبه ، عاكفًا على فحص جثة الإفريقى الذى أسدت إليه (سافارى) خدمة النقل السريع إلى العالم الآخر .. عاكفًا على الإدلاء بملحوظاته فى (ميكروفون) صغير الحجم معلق من كشاف الإضاءة ، ويتصل طرفه الآخر بجهاز تسجيل ؛ عرفت أن الرجل منهمك حقًا .. ومهتم ..

نظر لى نظرته غير المرحبة ، ثم واصل الكلام :

- « .. وعند تشريح المخ وجدت تمزقًا شديدًا فى الأم الجافية والأم الحنون ، وتهتكًا فى أنسجة المخ ، مما يجعل العين المجردة غير ذات قيمة .. يوجد تجمع

من الدم المتخثر ، لكننى لم أستطع العثور على الرصاصة .. من الواضح أنها .. خرجت من ..... »

ومدّ مسبرًا فى الثقب .. ثم عاد يقول :

ـ « خرجت من فتحة الخروج .. وهكذا يمكن القول : إن الوفاة حدثت فورًا .. و .. لا مزيد .. »

كان قد انتهى فقال لىِ وهو يرفع يديه الملوثتين فى قفازيهما :

ـ « هلا أغلقت الجهاز بحق السماء ؟ »

لم يكن له مساعدون فى المشرحة .. ولم يكن يرحب بواحد منهم .. فهو بخيل جدًّا بعلمه ، ويمقت الأسئلة .. لكنى كنت أعرف أن الرجل يخفى تحت جلده الثخين بئرًا عظيمًا من آبار العلم .. وكانت اللمحات التى أسمعها منه تعطينى زادًا علميًّا دسمًا لأسابيع عدة ..

كان يهوديًّا متعصبًا .. لكنى كنت أتعامل معه بأسلوب (حلب الأفاعى) الشهير .. لذا أغلقت له جهاز التسجيل فى تواضع وسألته :

ـ « لماذا تشرَحون هذا الرجل هنا ؟ »

ابتسم وهو ينزع قفازيه ويطوّح بهما فى سلة المهملات :

ـ « لأنه لا يوجد طبيب شرعى واحد فى (أنجاوانديرى) .. »

ثم أشار إلى الرأس الممزق ، وغمغم :

ـ « لكن رجل الأمن الأحمق هذا لم يترك لى الكثير .. كنت أعتزم تشريح المخ بدقة ، لكن الرصاصة لم تبق نسيجًا جوار نسيج .. على كل حال ، قد استنقذت بعض عينات تصلح للدراسة المجهرية .. »

ـ « والتحليل الكيميائى ؟ »

ـ « لم نتلقه بعد .. لكن المعدة خالية من النباتات المريبة ، لو كان هذا ما تبحث عنه .. أعتقد أنه لا مخدرات فى الموضوع .. »

تأملت الجثمان وعدت أسأله :

ـ « هل هناك جنون وبائى ؟ »

فكر حينًا ثم قال :

ـ « التسمم سبب لا بأس به .. لقد تساءل العلماء كثيرًا عن سبب جنون أكثر قياصرة الرومان .. (نيرون) .. (كاليجولا) .. إلخ ، ثم تبين من تحليل الأنسجة والعظام أن لدى هؤلاء نسبة غير عادية من الرصاص .. لقد كانوا ـ الحمقى ـ يستعملون آنية

رصاصية لطعامهم وشرابهم .. وكانوا حالة شائقة لتسمم الرصاص المزمن الذى يسبب الجنون ضمن أعراضه .. وهكذا يمكن القول دون مبالغة إن الرصاص هو قاهر الإمبراطورية الرومانية .. »

وصبَّ لنفسه بعض القهوة من (ترموس) على المنضدة ، وقال :

ـ « خذ عندك مثالاً آخر : الجنون الذى كان يصيب قباطنة السفن الإنجليزية ، الذين يقضون وقتًا طويلاً فى المحيط .. كان القبطان يتحول إلى طفل سخيف مهمته أن يحيل حياة بحارته جحيمًا .. فيما بعد عرفنا أن السبب هو نقص فيتامين (ب ـ ١) والذى يسبب مرض الـ (بيرى بيرى) .. وأمكننا اتقاء هذا الجنون بنخالة الأرز أو بخميرة البيرة .. »

ـ « وما هو فى رأيك سبب حالة الجنون هذه ؟ »

ـ لا أدرى بعد .. لكننا سنعرفه حتمًا .. »

وابتسم فى ثقة .. وهزَّ رأسه بمعنى أنه راغب فى انصرافى ..

تذكرت المقولة القديمة : طبيب يعرف كل شىء ولا يفعل شيئًا ، هو الطبيب الباطنى .. وطبيب لا يعرف

شيئًا ويفعل كل شىء هو الجراح .. وطبيب يعرف ويفعل كل شىء لكن بعد فوات الأوان .. هو طبيب علم الأمراض أو (الباثولوجى) .

حقًا يعرف (جيديون) ويفعل كل شىء ..

لكن هل فات الأوان حقًا ؟

★ ★ ★

مرَّ يومان وأنا أتحرق شوقًا لمعرفة مصير الحملة ..

كان من غير المعقول أن أقرع باب المدير لأسأله عن الأخبار ، فعلاقتى به لم تصل لهذا الحدّ قط ، ثم إننى رفضت الاشتراك فى الحملة منذ اللحظة الأولى .. سيكون غريبًا أن أبدى حماستى الآن ..

على أننى قابلته فى أثناء مرورى فى عنبر حالات الغيبوبة ، وسببها هنا ـ بالإضافة إلى أسباب العالم المتحضر ـ يكاد أن ينحصر فى مرض النوم ، والالتهاب المخى ، والملاريا المخية .

كان يتفقد سير العمل ، وخلفه يمشى د.(براكلى) حاملاً قلمًا و (بلوك نوت) صغيرًا ، يدوِّن فيه ملاحظات المدير .. وهذه الملاحظات سوف تطبق بدقة وأمانة ، وليست على سبيل التملق أو النفاق ..

فما إن رآنى حتى هزَّ رأسه محييًا .. وغمغم .

ـ « هو ذا صديقنا المصرى الشاب .. ماذا تفعل هنا ؟ »

فلو لم يكن المدير لرددت عليه ردًا لاذعًا على غرار (ليس لجمع عسل النحل بالتأكيد) أو (أفعل ما يفعله الطبيب وسط حالات الغيبوبة) .. لكننى ابتلعت لسانى .. وقلت فى أدب :

ـ « إننى مسئول عن هذا العنبر اليوم .. »

وللمرة المليون سألنى السؤال الذى لن يتذكر إجابته أبدًا :

ـ « وما هو تخصصك ؟ »

ـ لم أتخصص بعد .. لكننى طامح لأن أكون جراحًا .. »

ثم سألته قبل أن تزول حبال التودد :

ـ « ما هى أخبار حملتنا إلى (سوفلاى) ؟ »

هزَّ رأسه فى مرح ، وانحنى يتفقد جهاز التنفس المثبت فى حنجرة مريض يعانى غيبوبة سكر طويلة ..

ـ « بخير .. بخير .. (شلبى) يتصل بنا باستمرار ،

ويقول إن القوم ظرفاء ودودون .. إن العينات ستكون هنا خلال يومين على الأرجح .. أين الممرضة ؟ إن هذا الشاب يعانى قروح فراش .. لا بد أنها أهملت تبديل وضعه .. »

هرعت الممرضة الممتقعة لتفسرَ أو تقدم أعذارًا .. أما أنا فشعرت برضا لا حدَّ له .. فالحملة ما زالت بخير ..

ربَما كان من الممكن أن يظلوا أحياء برغم كل شىء ..

★ ★ ★

فى الثامنة مساء سمعت الطرقات على باب حجرتى ..

لقد اعتدت هذه الطرقات فى أول المساء ، وصرت أعرف معناها بسهولة تامة .. المدير يريدنى .. والسبب كارثة طبعًا ..

ـ « المدير يريدك يا دكتور .. »

ـ « السبب كارثة طبعًا .. »

ـ « ربَما .. »

وارتديت معطفى ، واتجهت متوجسًا إلى مكتبه ..



كان هذا الأخير يحمل صورًا فوتوغرافية ..
صورًا تم التقاطها من تحت المجهر ..

مشكلة هذا الرجل أنه يجدنى بسهولة تامة .. هذا المساء أنا لست نوبتجيًا ولست مكلفًا بأى شىء ، وكان حلمى أن أقضى الوقت فى الفراش ، أطالع رواية بوليسية سخيفة ، أو أكتب خطابًا لـ (أشرف) صديقى فى مصر ، أفسّر له سبب عدم كتابتى أى خطاب له ..

لكن هأنذا أدخل إلى مكتب المدير ، لأجده جالسًا وأمامه (جيديون) أستاذ علم الأمراض إياه .. والإضاءة العلوية تنذر بكارثة ..

كان هذا الأخير يحمل صورًا فوتوغرافية .. صورًا تم التقاطها من تحت المجهر .. وكانت تمثل الشرائح التى أعدّها من مخ عملاق (الكيكويو) إياه .. وكان وجه الرجل ممتقعًا مفعمًا بالقلق ..

وبعد لحظات من الحوار ، عرفت خطورة الموقف بحقّ ..

لقد كانت الشعيرات فى مؤخرة عنقى صادقة كالعادة ..

إن حملتنا لن تعود ....

★ ★ ★

الجزء الثانى

عن القبائل التى تكذب

بقلم د. برنادت جونز

« هؤلاء القوم يدارون شيئًا ما .. شيئًا يهابون الكلام عنه .. لكنه حقيقى وملموس ومفزع ..

« ليتهم يصدقوننى .. ليتهم يفرّون من هنا قبل فوات الأوان ..

ليتهم يؤمنون برهافة حواس المرأة .. »

١ـ بف ف ف ف !!

قالت (برنادت) :

من الأشياء التى علمتنا إياها الحضارة الحديثة ، هى أن المرأة لا ينبغى لها أن تعترف بوهنها الجسدى ، حين تكون وسط الرجال ...

★ ★ ★

كانت ـ والحق يقال ـ رحلة شاقة إلى (سوفلاى) ، فبعدما هبطت طائرة الهليوكوبتر كان علينا أن نستقل عربة (لاندروفر) إلى قرية (الكيكويو) أو ـ بعبارة أدق ـ منطقة قراهم الواقعة فى أقصى الجنوب الشرقى للبلاد ، وكان الطريق وعرًا .. وعرًا كما خلقت اللفظة لتعنى .. ومن الواضح أنهم لم يتوقعوا قدومنا من قبل ليعدوه بما يتناسب مع عظامنا الهشة ..

كنت أقضى الساعات أثرثر مع التونسى (بسّام) ، وهو إنسان لطيف المعشر حقًا .. ومتحمس لكلّ شىء باعتباره يخوض تجربة الغابة الإفريقية للمرة الأولى ..

أما الآخرون فكانوا يرقبون كل شىء بفتور أدنى إلى الملل .. فهى مهمة روتينية قاموا بها مرارًا ها هنا .. صحيح أن الغموض يغلف كل شىء ، لكن من قال إن الأمور واضحة إلى هذا الحدّ فى الدغل ؟

كان معنا (أوشيمو) اليابانى و (شلبى) الأمريكى و (رافاييل) الكاميرونى و (هسلر) الألمانى .. منظمة دولية صغيرة تشق طريقها عبر الأدغال لمعرفة ماذا أصاب الـ (كيكويو) ...

كان دور (رافاييل) ـ طبيب الأعصاب الشاب ـ يتلخص فى ترجمة ماسيقال ، وشرح ما لن نفهمه أبدًا من عادات هؤلاء القوم .. ولكن دور الحماية كان على عاتق رجل الأمن (ليوبولد) الذى زودوه ببندقية آلية ومسدس .. وكنا نعرف أن هذين لا قيمة لهما لوساءت الأمور .. فكل مستكشف لإفريقيا يعرف أن الأسلحة النارية قد تقتل خمسة أو ستة رجال قبل أن ينقض عليك باقى رجال القبيلة ليمزقوك إربًا ..

وفى العادة يكون دور الأسلحة النارية ضارًا أكثر منه نافعًا ..

لكنها شىء لا غنى عنه .. فالأسود تفهم لغة الطلقات النارية على كل حال ...

ساعات طويلة استغرقتها رحلتنا الوعرة ، حتى خيل إلى أننا فى إعلان عن كفاءة هذه السيارة (اللاندروفر) وقدرتها على اختراق الصخور ..

وفى النهاية تأمل د. (رافاييل) الخارطة وأعلن أننا قد وصلنا إلى قرى (الكيكويو) ، وكان على السائق أن يتركنا ويعود إلى (سوفلاى) ..

سأله (آرثر شلبى) وهو يمضغ سيجاره :

ـ « ما سرّ استقرار هذه القبائل ها هنا ؟ »

قال (رافاييل) وهو يعيد طىّ الخارطة :

ـ « لقد صار هذا السرّ أقدم من أن يعرف .. من يدرى ؟ لربما نزحوا من (إفريقيا الوسطى) أو (الكونغو) بعد ما أحرقوا غابات كثيرة ولم تعد ثمة أرض صالحة للزراعة .. ولربما جاءوا من (أوغندا) فى ١٨٨٠ فارين من اضطهاد وعنف الطاغية (موتيزا) .. »

سألته وقد دقّ الاسم جرسًا فى ذاكرتى :

ـ « (موتيزا) ؟ من هو ؟ »

ـ آه يا دكتورة .. إنه أشرس سفاحى إفريقيا فى تاريخها .. لقد كان يتسلى بالذبح .. وكم من مرة

قطع رأس إحدى زوجاته ، لأنها نسيت إغلاق الباب وراءه .. وفى كل صباح كانوا يدفنون أمامه طفلاً حيًا إرضاءً للأرواح .. ويوم مات قدموا على قبره خمسمائة ضحية بشرية ! »

قال (شلبى) فى استمتاع :

ـ « يقطع رأس زوجته لأنها لم توصد الباب ! مرحى ! هذا هو الحزم الرجولى ! »

ـ « لقد كانت له سبعمائة زوجة !

ـ « لا بد من هذا العدد الكبير ، ليجد رءوسًا كافية لقطعها .. ولكن دعنا من المزاح وقل لى : هل (الكيكويو) يختلفون عن (الباتنو) ؟ »

قال (رافاييل) وهو يحاول أن يتذكر :

ـ « كقاعدة : لا أظن .. إنهما قبيلتان مسالمتان مولعتان بالزراعة والرعى .. ولم يُعرف عنهم أنهم محاربون أو شجعان .. ولا بد أن فظائع (موتيزا) قد جرحت شعورهم الرقيق كثيرًا .. »

ونظر إلى ساعته وتثاءب .. ثم قال للسائق :

ـ « أظن أن أمامنا ربع ساعة يا (جومبا) .. »

★ ★ ★

رأينا جمعًا من هؤلاء القوم يغادرون أكواخهم ليلقونا[*] ..

ولاحظت سمةً نـدرَ أن تراها اليوم فى القبائل البدائية .. العرى .. فهؤلاء القوم عراة تمامًا إلا من إزار من جلد يحيط الخصر ويتدلى حتى الركبتين .. وكانت النساء شديدات القبح ، يرتدين حليًا من النحاس أو الفضة بعضها أسفل الركبتين ، وبعضها حول الكاحلين ، ويصل عددها إلى العشرين حتى ليحار المرء فى كيف يستطعن المشى بهذه الأثقال ..

والسمة العامة الأخرى فى النساء ، هى أنك لا ترى واحدة تمشى دون أن يكون على ظهرها شىء .. حمل من الحطب يعجز الجمل عن حمله ، أو طفل فى كيس جلدى يرفعه سير يحيط بالجبهة ، أو إناء من الجلد يحوى طعامًا ما ..

أما الآذان ففيها الأقراط الأسطوانية العملاقة التى رأيناها فى أذنى محارب (الكيكويو) فى (سافارى) .. وكانت بعض هذه الأقراط هائلة الحجم حقًا حتى إنهم

(★) من جديد نكرر أن كل ما يرد فى (سافارى) حقيقى ، ما لم نقل غير ذلك فى الهامش ..

يربطون صوان الأذن بشريط من خرز معلق فى الجبهة ؛ كى يحمى الأذن من أن تتمزق تحت ثقل القرط ..

السمة الثالثة التى تقتحم العين اقتحامًا هى أسنانهم التى يبردونها لتبدو حادة لامعة كأسنان الكواسر .. ولاحظت أنهم يضعون على رءوسهم روث البهائم ويدهنون به أجسادهم ، حتى إن رائحتهم لا تُطاق .. وسألت دليلنا الكاميرونى د. (جابربيل) عن سرّ هذه العادة المقيتة فقال :

ـ « ليس هذا كل شىء .. إنهم يستحمون ببول الأبقار أيضًا ! »

تقلصت معدتى لكنى حرصت على ألا يتقلص وجهى بدوره ..

وسألته :

ـ « وما الحكمة فى هذا ؟ إن هذا لن يزيدهم جمالاً على ما أظن »

ابتسم للملحوظة .. كان يسرّه أن يرى تفاعل الأوروبى أو الأجنبى ، إذ يرى هذه الأشياء .. وقال وهو يتقدمنا :

ـ « هذه العادة تجعلهم مقبولين عند الماشية .. لا تنس أن هذا مجتمع زراعى رعوى .. وبالتأكيد ليست مقاييس الجمال عند الماشية ملائمة لنا معشر البشر ! »

كتمت خواطرى ودنوت معه من زعيم هذه القرية الذى خرج كى يستقبلنا ، وحوله أربعة من الرجال يحملون الدروع والحراب ..

كان عاريًا مثلهم ، حليق الرأس مثلهم ، لكن عدد الحلىّ التى كان يرتديها أكثر نوعًا .. ثم إن له مهابة وسلطة لا تخطئهما العين ..

وحين ضحك رأيت أسنانه العاجية شديدة البياض .. وتذكرت هنا ما سمعته مرارًا من أن قيمة الرجل فى إفريقيا السوداء هى بياض أسنانه .. ولو ظهر بين هؤلاء (أديسون) ذاته مصفرّ الأسنان ، لاعتبروه مخلوقًا غبيًا وضيعًا ..

رفع د. (جابربيل) يده محييًا ، ثم راح يتكلم .. من الواضح أنه يلاقى عنتًا شديدًا فى الكلام ، لأنه يتحدث بخليط من اللهجات ، ويعتمد على الإشارة كثيرًا ..

لكن القوم كانوا يصغون له باهتمام .. فهو أسود البشرة ، ويستحق الاحترام ، لا كهذه القردة البيضاء والصفراء التى تمشى معه ..

أخيرًا قال الزعيم بضع كلمات .. فاستدار (جابرييل) يقول لنا :

- « إن الزعيم (مولجا) قد فهم مهمتنا ، وهو يرحب بنا ها هنا للفترة التى نريدها .. وستكون كل إمكانيات القبيلة تحت إمرتنا .. »

- « ... بما فيه المعامل وأجهزة الحاسب الآلى ! »

قالها (آرثر شلبى) ساخرًا بجانب فمه .. فلم يعلق أحدنا ..

سأل (أوشيمو) مترجمنا :

- « وماذا عن الستة العلماء المفقودين ؟ »

نقل (جابرييل) السؤال إلى الزعيم ، ثم ترجم لنا إجابته :

- « يقول إن هناك عشر قبائل ها هنا ، كلهم من (الكيكويو) .. فلماذا نسأله هو بالذات عما لا يعرف إجابته ؟ »

قال (شلبى) :

- « إجابة مفحمة .. وما رأيه فى الوباء ؟ ما تفسير سلوك هؤلاء القوم العدوانى ؟ »

- سؤال جديد يوجه بلغة كسيحة .. لكن إجابة الرجل كانت بليغة جدًا .. أصدر صوتًا خاصًا من بين شفتيه (بف ف ف ف) !

- « إنه يقول .... »

- لا داعى للترجمة .. يقول إن هذا كله هراء .. »

★ ★ ★

وكان (شلبى) يجيد تنظيم الأمور حقًا ..

بدأ باختيار مقرّ إقامتنا ، وهو كوخ من ألياف الشجر المجدولة تم صنعه بعناية فائقة .. وكان قذرًا من الداخل لأن هؤلاء القوم يعيشون فى أكواخهم مع الماشية ، لكننا استطعنا تنظيفه وغسله بعناية ..

كان من العسير علىّ أن أجد الماء لأستحم .. ولو وجدته لما وجدت المكان الذى يسمح ببعض الخصوصية ، فهؤلاء الناس يتعاملون مع المرأة تعاملهم مع الرجل .. وقد أشارت لى النسوة إلى نهر قريب يراه الجميع كى أستحم فيه إذا أردت ، وكان هذا مستحيلاً بالطبع ..

لهذا اكتفيت بغسل أطرافى ووجهى وشعرى ..

وجاءت النسوة يحملن بعض الآنية الجلدية تحوى طعامنا ، ولم أكن راغبة فى استكشاف قائمة طعامهم ؛ لأننا نحمل كثيرًا من المعلبات معنا .. لكن ـ بدافع الفضول ـ تفقدت الطعام .. كان عجينًا لزجًا له رائحة متخمرة ، عرفت أنه مزيج من جذور (التابيوكا) ـ تشبه البطاطا ـ مع الذرة ..

وهكذا جلسنا نتناول اللحم المحفوظ ، كما استطعنا إعداد بعض الشاى على نار أوقدتها النسوة لنا ..

وكان الأطفال العراة يتزاحمون على فتحة الكوخ لرؤية هذه الأعجوبة التى هى نحن ، فكان (ليوبولد) يزجرهم ويقذفهم بقطع حجارة صغيرة ، فقط ليزداد عددهم أكثر ..

سألت (شلبى) ونحن نرشف الشاى بعد الغداء :

ـ « ما هى خطتنا ها هنا ؟ هل نمضى بضعة أيام بانتظار أن يجنّ أحد هؤلاء .. أم نعود لـ (سافارى) لنعلن أن الأخبار مبالغ فيها ؟ »

قال وهو يشعل سيجاره العملاق الشبيه بالسجق الفرانكفورتى :

ـ « أولاً سننال قسطًا من الراحة .. ثم نقوم بجولة منظمة على الأكواخ ، ونجرى حصرًا للحالات المرضية .. فى النهاية سيكون لدينا تقرير محترم نعود به للطاغية العجوز .. »

كان مبالغًا فى عبارته .. فالبروفسور (بارتليه) لم يكن طاغية على الإطلاق ، بل هو أقرب إلى التساهل والضعف .. ثم إنه ليس عجوزًا .. لكن دواعى السخرية لديه كانت أقوى من أية اعتبارات ..

قلت متجاهلة ما قال :

ـ « سأتولى أنا حالات الأطفال .. »

ـ طبعًا .. وسأفحص أنا و (أوشيمو) حالات الكبار .. وسيقوم (بسّام) بعمل جداول دقيقة مع ترقيم الأكواخ وحصر الأهالى .. (جابرييل) سيفحص الحالات العصبية ، و (هسلر) سيأخذ العينات .. »

ونزع حذاءيه وأعلن أنه راغب فى بعض النوم ..

كنا جميعًا مثله بعد مشاق السفر .. وسرعان ما دسّ كل منا جسده فى كيس النوم الخاص به ،

بعد ما تأكد من خلوه من الثعابين ، وغاب فى نعاس عميق ...

* * *

القمر .. القمر ودقات الطبول ...

لقد نمنا أطول مما توقعنا ...

* * *

٢ - رقصة الموت ..

كان المشهد رائعًا حين خرجنا من كوخنا ..

القمر يتألق بكامل بهائه وسحره ناشرًا ضوءه الراقى الفضى على الوجود .. من بعيد تتدثر غابات (الماهوجنى) و(الأبنوس) بأشجارها العملاقة ؛ تتدثر بالغلالة الفضية الزرقاء الشاحبة الرهيبة الباردة ..

ومن قريب تتراقص النيران فى وسط القرية .. وحولها يلتف رجال القبيلة ونساؤها .. ويرتفع صوت الغناء الإفريقى الساحر ، يتبادل فيه صوت النساء الرفيع مع صوت الرجال الغليظ ، على خلفية من دقات الطبول ..

وحك (بسّام) شعره الكثّ المجعد قليلاً كأكثر رجال المغرب العربى وتساءل وهو يتثاءب :

- « ما كل هذا ؟ »

قلت وأنا مبهورة الأنفاس :

- « لا أدرى .. لكنه ليس احتفالاً بقدومنا بالتأكيد .. »



كان هناك ساحرٌ يرقص ، وعلى رأسه قناعٌ يمثل وجهًا باكيًا كأقنعة تمثيل الإغريق ..

كان هناك (طوطم) صغير الحجم فى مركز الاحتفال ، لم نلحظ وجوده لدى وصولنا .. وكان ككل الطواطم الإفريقية ، عبارة عن جذع شجرة ، نحتت عليه وجوه بشعة ، لكنها متقنة جدًا من الناحية التشكيلية ، وقد تم تلوينه بتلك الألوان الإفريقية الزاهية المنفرة ، والتى تجلعنى أشك فى اختلاف تركيب عيونهم عن عيوننا ..

لكن الشعوب البدائية كلها لا تؤمن بموضوع انسجام الألوان هذا .. هم يحبون الألوان فى حدّ ذاتها ، ولا يفهمون معنى لكراهيتنا لاتحاد ألوان معينة مع بعضها ، لهذا يضعون الأخضر الزرعى جوار البرتقالى الفاقع جدًا ، ولا يرون فى هذا خطيئة .. وأعتقد أن بوسعى فهم وجهة نظرهم هذه ..

كان هناك ساحر يرقص ، وعلى رأسه قناع يمثل وجهًا باكيًا كأقنعة تمثيل الإغريق ، وحوله كان رجال ونساء القبيلة يرقصون ذلك الرقص العشوائى المجنون الذى ليست له خطّة معينة .. إن رجل غرب إفريقيا يبدأ فى الرقص المحموم ، قبل أن يعرف أن هناك موسيقا ..

فلما شعروا بوجودنا ازدادت حماستهم فى الرقص أكثر فأكثر .. أجسادهم المغمورة بالعرق تلتمع فى ضوء المشاعل ، ومن آن لآخر يثب أحدهم فى الهواء وقد غمرته النشوة ثم يواصل الرقص ..

قال د. (جابرييل) وقد لاحظ انبهارى بالمشهد :

- « لم تريه من قبل ؟

- « فى السينما فقط .. »

- « إن الأفارقة يرقصون دومًا ... يرقصون للفرح ويرقصون للحزن .. يرقصون للحبّ ويرقصون للمقت .. يرقصون إلى أن تأتيهم الحضارة لترهقهم بالخدمة العسكرية والضرائب ، وحتى يأتى المبشرون ليخبروهم بأن الرقص آثم كالشيطان ، وحتى يحرّم الحكام الرقص باعتباره مزعجًا ومصدرًا للصخب ..

لكن الأفارقة - برغم كل شىء - يستمرون فى الرقص فى القرى الصغيرة ، حيث لا يوجد حكام ولا رجال بيض .. »

كانت هناك جوقتان للغناء .. جوقة تتكلم والأخرى تردّ عليها مع إيقاع الطبول وآلة تشبه (الإكسليفون) .. ولم تكن هناك أية آلات نفخية .. وعرفت من

د.(جابرييل) أن أسلوب الجوقتين اللتين تتبادلان الحوار نادر فى الغناء الإفريقى .. ربما لا يمكن سماعه إلا شرق (السنغال) عند قبائل الـ (سيرير) ..

سأحاول هنا أن أصف الرقصة لكم .. وأرجو ألا يكون هذا مملاً لأن وصف الرقص شبيه بوصف الموسيقا : لا معنى له ..

الرقصة تُدعى (جافارا) .. وبعبارة أخرى (رقصة الطوطم) .. وأصلها من (بوركينا فاسو) ..

رأينا اثنى عشر رجلاً مقنعًا .. والأقنعة الإفريقية فى الغالب ترمز إلى الأجداد الموتى .. أى أنها نوع من عقيدة عبادة السلف .. وكانت رائعة الجمال ، ملوّنة بالأحمر والأبيض والأسود ..

أما الراقصون الأساسيون فكانوا يرتدون ما يشبه قمصانًا ذات لون بنى وأسود ، وكان كل منهم يحمل زوجين من العصى يتواثب بهما أو يحركهما كعصى الانزلاق .. يمثل أولهم دور تمساح أو وحش كاسر يتواثب فى كل صوب ويرهب الواقفين ، ثم يتقدم منه سيد (الطوطم) ليقتله فى حركات تمثيلية ..

وينسحب الوحش ليأتى مَن بعده ، ويعيد الكرَّة ،

فما إن ينتهى الرجال حتى يرقص سيد (الطوطم) وحده وبلا تعب .. يرقص ثلاث ساعات كاملة !

كنا نراقب هذا المشهد مبهورى الأنفاس بعيون متسعة .

قال د. (جابرييل) الذى عرفت أنه خبير فى أمور شعبه حقًا :

ـ « هذه من الرقصات الشهيرة فى غرب إفريقيا .. لكن هناك أيضًا رقصة التضحية (دالاباني) .. ورقصة الخصوبة (أوانجالادوجو) .. ورقصة الصيد (ياموسوكرو) .. ورقصة الفضيلة .. لكنى لم أعرف قط أن (الكيكويو) يمارسونها .. »

قال (شلبى) باستمتاع وهو يلوك السيجار :

ـ « من الواضح أن هذه القبيلة ما زالت محتفظة ببراءتها الإفريقية الأولى .. »

ـ « ليت معنا كاميرا تصوير سينمائى أو كاميرا (فيديو) .. إن هذه الروائع تندثر سريعًا جدًا مثلها مثل (الغوريللا) و(النسر الأمريكى) .. »

سأل (بسّام) وعيناه تلتمعان انفعالاً :

ـ « وما سرّ اختيار مقدمنا لتقديم هذا العرض ؟ »

أشار (شلبى) إلى البدر فى السماء ، وقال :

ـ « الأمر واضح .. القمر مكتمل فى هذه الليلة ..

وما كانوا ليؤخروا هذا الحفل الدينى أو يقدموه من أجلنا .. »

هنا أشار (أوشيمو) إلى صف يتقدم خارجًا من أحد الأكواخ :

ـ « ومن هؤلاء بالضبط ؟ »

كانوا نحو العشرة أو نيف من الشيوخ الذين انحنت قاماتهم ، وتهدلت جلودهم ، يمشون فى تؤدة كأنهم أشباح تغادر القبور .. وببطء انشقت الصفوف لتخلق ما هو أدنى إلى ممر يسمح بسيرهم وساد صمت متوتر رهيب ..

ثم إن الزعيم (مولجا) دنا منهم ـ أين كان طيلة هذا الوقت ؟ ـ فرفع عصاه ، وراح يردد مقاطع لم أفهمها بعد ..

قلت لـ (شلبى) فى توجس :

ـ « هل سيذبحونهم الآن ؟ »

ضحك .. ومضغ المزيد من سيجاره وقال :

ـ « يا عزيزتى أنت تشاهدين أفلامًا أكثر من اللازم .. حقًا هذه الطقوس توحى بجو التضحية البشرية ، لكن الرقص الإفريقى فى حدّ ذاته يقوم على الترميز ..

أى أنهم كانوا يمارسون هذه الأشياء فى الماضى ، لكنهم اليوم يكتفون بالرقص تعبيرًا عنها .. كما أن وفاة (هاملت) على المسرح لا تعنى وفاة الممثل .. »

كان الزعيم يحمل سكينًا هائلة الحجم ، ولها مقبض من الألياف المجدولة ، وراح يدور بها على أعناق الشيوخ الواقفين ، آتيًا بجركات توحى بالذبح .. وبدورهم كان كل عجوز يجثو على ركبتيه آتيًا بحركات توحى بالاحتضار ..

ثم جاء دور الثور ..

ـ « ترين .. هذا هو (الفتيش) الرمزى .. سيذبحونه الآن ، وسيكون لهذا معنى ذبح القرابين البشرية .. »

ـ « هل تعنى أنهم لا يفعلون هذه الأشياء الآن ؟ »

ـ « هذا عسير .. وإلا لتكفلت بأمرهم طائرتان قاذفتان من سلاح الطيران الكاميرونى .. إن القبائل البدائية اليوم تتكسب من العروض السياحية مقابل مال ، ومن العسير أن يعود الماضى كما كان .. »

هنا انهالت النصال على الثور ..

كل من يحمل سكينًا هوى بها على (الفتيش)

المسكين .. فتراخت أقدامه وسقط على الأرض يتشحط فى دمه ..

★ ★ ★

انتهى الحفل ..

ورأينا الرجال يمزقون بمديهم فخذ الثور ، يجلبونها لنا ليلقوها على الغبار ثم تراجعوا ..

قال (جابرييل) :

ـ « إنها لنا .. يمكننا أكلها مطهية أو نيئة إذا ردنا .. وهى هدية كريمة من الزعيم .. »

حرك (شلبى) كفه أمام جبينه بما يعنى الشكر ؛ ثم أخرج سيجارًا ناوله للزعيم ، وأشار إليه .. وإلى فمه ..

ـ « هذا .. دخان .. »

لكن الرجل لم يكن بعيدًا عن الحضارة إلى هذا الحدّ .. لقد تشمم السيجار فى حنكة ، ثم دسه فى فمه وقال بلهجة مضحكة :

ـ « هووم ! هافانا ! »

بصعوبة استطعنا كتم ضحكاتنا ، وعرفت فيما بعد أن هذه القبيلة تعرف المستكشفين .. وأكثر هؤلاء لا يجد ما يقدمه هدية سوى الطباق والملح ..

ولم يكن سيجار (شلبى) من نوع (هافانا) .. لكن الفوارق لن تهم كثيرًا ها هنا ..

سألت (جابرييل) وأنا أرمق الشيوخ يعودون إلى الكوخ ، بعد ما ظفر كل منهم بقطعة لحم لا بأس بها :

ـ « وما مصير هؤلاء ؟ »

سأل الزعيم بضعة أسئلة مختصرة ، ثم قال لى :

ـ « لا شىء .. إن الاحتفال هو نوع من الإعداد الروحى لهم للحاق بالأجداد ؛ فمن المؤكد أن واحدًا أو اثنين منهم لن يكونا ها هنا حين يكتمل القمر فى الشهر القادم .. والرقصة التى شاهدناها تذكرهم بفضل (الطوطم) فى حمايتهم ، كما تحمّلهم رسائل التقدير إلى الأجداد ، وفى النهاية تذكرهم بأنهم محظوظون حقًا إذ انتهى عصر التهام الشيوخ ! »

بدا لى كل هذا حزينًا مؤسيًا ..

وتذكرت عادة هنود أمريكا الشمالية ، حين كانوا يضعون الشيوخ على جزيرة ثلجية عائمة فى الماء ، ويفارقونهم كى يعيشوا ساعاتهم الأخيرة فى التأمل على دخان الغليون ...

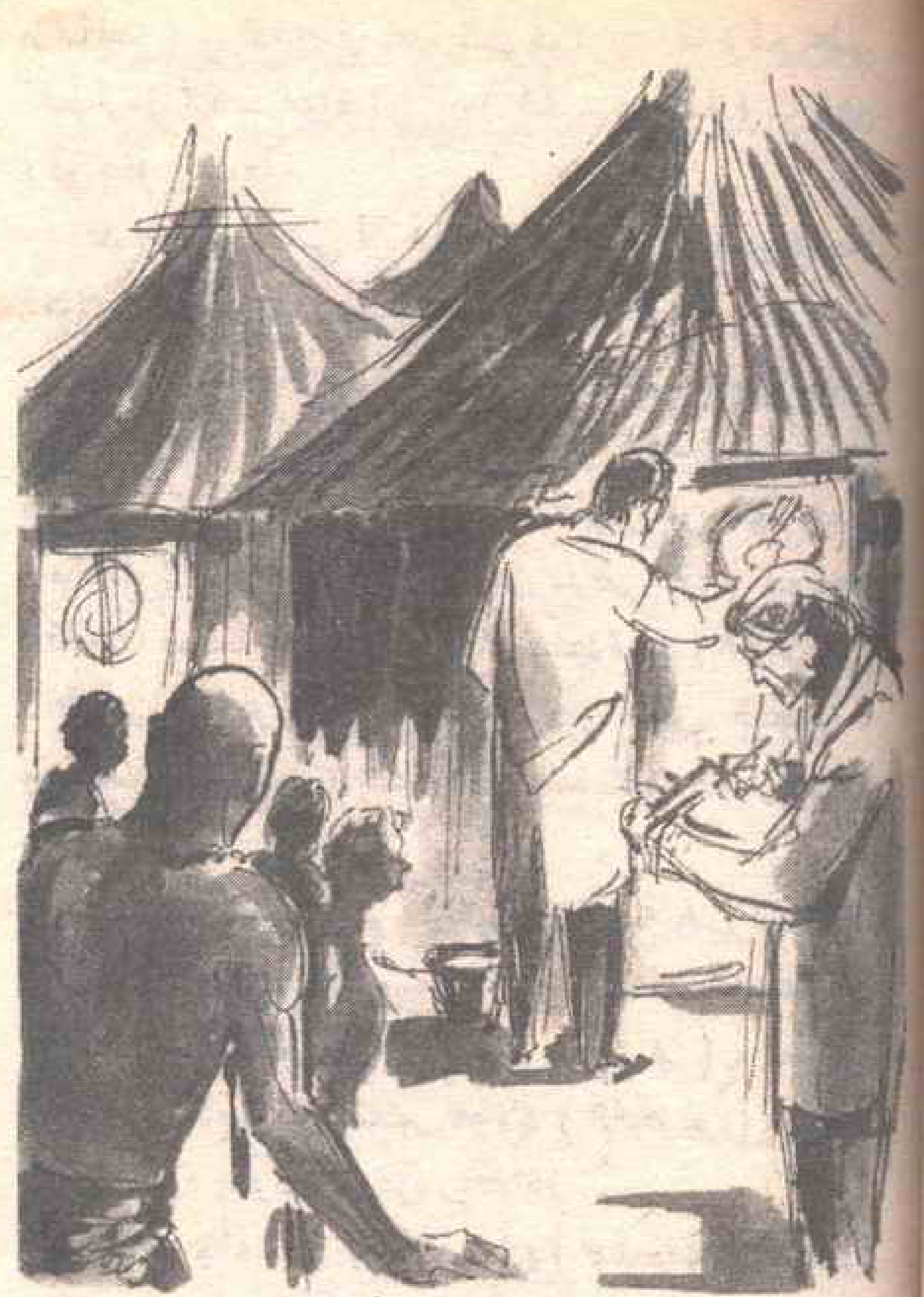
من القسوة أن تذكر الشيوخ بدنو نهايتهم ..

لكن من الواضح أن الشعوب البدائية تتعامل مع الموت بأسلوب واقعى عملى يفوقنا بمراحل ، والكل يعتبره مرحلة طبيعية من مراحل الحياة ..

إذن .. كانت هذه هى رقصة الموت ....







وتركونا نضع تلك العلامات على أبوابهم .. بعد هذا قام (بسّام) بحصر السكان فى كل كوخ ..

٣ - الكوخ رقم (٢٢) ..

بوم بوم بوم ! (حتى فى ساعات الفجر) ..

★ ★ ★

مرّت علينا ثلاثة أيام وسط (الكيكويو) ..

كان أسلوبنا منظمًا جدًّا لا يترك فرصة للمصادفات ، ففى البداية قام (بسّام) مع (ليوبولد) بالمرور على الأكواخ ، وترقيمها بالطلاء الأبيض ، وكان عددها ثلاثين كوخًا ..

والحق أن سوء فهم كاد يحدث لأن (الكيكويو) كادوا يجنون رعبًا من تعاويذ السحر هذه .. لكن (جابرييل) نجح بلباقة فى إقناع الزعيم بأهمية ما نقوم به ، ولم يكونوا حديثى عهد بأساليب الأوروبيين وولعهم بإجراء التعداد ، لذا وافقوا على مضض .. وتركونا نضع تلك العلامات على أبوابهم ..

بعد هذا قام (بسّام) بحصر السكان فى كل كوخ .. وهو أمر عسير فى قبيلة نُدعى أكثر أفرادها باسم

(مولجا) .. لذا صار اسم كل فرد يسبقه رقم على غرار (١٢ - مولجا) .. (٢٦ - مولجا) .. وهو رقم الكوخ طبعًا ..

بعد هذا كان علىّ أن أتفقد الأكواخ ، وأجرى فحصًا لحالات الأطفال المرضية ..

وكان الأطفال يعيشون - حقًا - فى أسوأ بيئة ممكنة ، جنبًا إلى جنب مع الماشية وفضلاتها ، لذا وجدت حالات عديدة من حمى ، أغلب الظن أنها حمى (مالطة) .. ووجدت حالتين من مرض النوم لم يعد إنقاذهما ممكنًا .. ووجدت حالة واحدة من (الكزاز) .. دعك من الأقدام المتقرحة ، وأمراض نقص التغذية ، وسرطان (بيركت) عدو أطفال المناطق الحارة رقم واحد ..

قمت بعمل ما بوسعى ، لكن الحقيقة هى أن أكثر الحالات كان بحاجة إلى مستشفى ، ومن العسير أن نجد سبيلاً لنقل كل هؤلاء إلى (سافارى) ، كما أن الحكومة الكاميرونية تعتبر هؤلاء (الكيكويو) دخلاء على الحدود ، وليسوا من رعاياها ..

بعد هذا جاء دور (شلبى) و(أوشيمو) لفحص الكبار ..

الكبار الذين لم يكفوا عن اعتبارنا مجموعة من الحمقى البيض ، جاءوا ليجعلوا الحياة مريرة أكثر مما هى عليه ..

وكانت أمراض الكبار تشبه أمراض الأطفال كثيرًا ، لكن (الملاريا) لدى الكبار كانت أقل حدة .. وقد استهلكنا كثيرًا جدًا من (السلفا) و (الكينين) وحقن (البنسلين) .. لكن ما حققناه كان بعيدًا عن الكمال .. ومن الضرورى أن يطلب المدير بعض الإمدادات الطبية من الصليب الأحمر ، أو الهيئات الطبية الخيرية الأخرى ..

لكننا لم نجد ما كنا نبحث عنه ..

كانت هناك حالات عصبية حقًا .. كانت هناك حالات هياج حقًا .. لكن د. (جابرييل) كان هناك دومًا ليطلق اسمًا لاتينيًا معروفًا على كل حالة .. هذه حالة (كزاز) .. وهذه حالة (سُعار) ناجمة عن عضة حيوان .. وهذه حالة (زهرى) بالجهاز العصبى ..

الخلاصة : لا توجد ألغاز فى هذه القبيلة ..

★ ★ ★

بوم بوم بوم ! (وحتى عند الغروب) ..

★ ★ ★

بعد انتهاء الأيام الثلاثة جمعنا (شلبى) فى الكوخ الذى اخترناه لنا ، وراح يراجع التقارير التى جمعناها .. ثم سأل (هسلر) :

ـ « هل وجدت شيئًا ؟ »

كان (هسلر) صيدليًا ، وله اهتمام خاصّ بالنباتات الاستوائية ذات التفاعلات السامة .. كان ألمانيًا أزرق العينين واسعهما ، له وجه صبيانى مذعور على الدوام ..

قال (هسلر) فى لهجة قاطعة :

ـ « لا شىء .. هذه القرية نظيفة تمامًا .. »

قال (شلبى) وهو يطوى الأوراق :

ـ « أعتقد أنه لا جديد يمكن أن نجده .. سأتصل بالبروفسور (بارتلييه) أقترح العودة غدًا .. »

سأله (بسّام) غير مصدق :

ـ « دون أن ننهى عملنا ؟ »

قال بذات اللهجة التى استعملها (هسلر) :

ـ « قد أنهيناه بالفعل .. لا شىء يثير الريبة هنا .. وأعتقد أن التقارير التى لدى البروفسور هى مجرّد شائعات ، أو مبالغات .. إن المشاجرات تحدث كثيرًا ؛

خاصةً حين يكون على قوم بسطاء كهؤلاء ، التعامل مع الحكومة ، وتفرض عليهم ضرائب مقابل استغلالهم للأراضى .. عندها لا يجدون للحكومة نفعًا سوى أن تجعل حياتهم جحيمًا .. إن حياتهم بسيطةٌ إلى درجة أنهم لا يتعاملون بالنقود .. كل علاقتهم بالأوراق المالية هى أن عليهم الحصول عليها لتأخذها السلطات ..

عاد (بسّام) يسأل :

ـ « والعلماء الستة المفقودون ؟ »

ـ « حتمًا لم يضيعوا هنا .. من السهل أن يذوب المرء تمامًا فى (الكاميرون) ، فلا يعرف أحد آخر مكانٍ كان فيه .. »

ساد الصمت ، ورحنا نلوك ما فى أيدينا من طعام .. لقد بدأنا نأكل خليط (الكسافا) الذى يقدمونه لنا ، ولم نعد نجده رديئًا ..

قال اليابانى وهو يمسح فاه من الخليط اللزج :

ـ « بالمناسبة .. الكوخ رقم (٢٢) حسب ترقيم (بسّام) ، يضمّ كل الشيوخ الذين قابلناهم فى الاحتفال .. لقد مات واحد منهم أمس .. »

ـ « أحقًا ؟ وسبب الوفاة ؟ »

- « لا أدرى .. لكن الشيوخ يموتون على كل حال ، وهم فى ذلك كجهاز الراديو الذى يقرّر أن يفسد فجأة دون سبب .. إن تشريح جثته مستحيل بسبب عقائدهم هاهنا ، وقد أخذوه ليدفنوه خارج حدود القرية .. »

- « وما أهمية هذا الخبر ؟ »

- « لا أهمية له .. فهؤلاء القوم يعيشون فى مستنقع من الأوبئة ، ولا يثير دهشتى أن يموت عشرة منهم فى كل يوم .. فقط أقول هذا للدقة الإحصائية .. »

هزّ (شلبى) كفه كأنما ليغلق صنبور ماء ، وقال :

- « شكرًا على دقتك الإحصائية .. والآن لننعم بالنوم ، فلربما كان علينا أن نجرّب رحلة العودة غدًا .. »

كان هذا كافيًا ، وأطفأ (أوشيمو) كشاف النيون القابل للشحن ليسود ظلام دامس ، ثم اعتادت عيوننا ضوء القمر الباهت المتسلل - فى حياء - إلى الكوخ ..

الحق أنها أمسية رائعة ، لولا البعوض ودقات الطبول ..

★ ★ ★

بوم بوم بوم ! (حتى عند الظهيرة) ..

★ ★ ★

وقف (شلبى) يرمق المشهد المهيب فى صمت .

ثم أشار لى كى أدنو منه ، ودون أن يبدل اتجاه نظره قال :

- « يبدو لى هذا أقوى من قوانين الصدفة .. »

ابتلعت ريقى .. وقلت وأنا أتراجع :

- « هذا حق .. لكن كيف نتأكّد ؟ »

★ ★ ★

قال د. (جابرييل) وهو يراجع أوراقه :

- « لا أدرى يا د. (شلبى) .. كنا متفقين على أن هذا الاحتمال وارد ، ولا أرى ما يريب فيه .. »

بدّل (شلبى) من وضع جلسته ، وقال وردفاه يؤلمانه ، إذ لم يعتد الجلوس على الأرض قط :

- « شيخان يموتان فى يومين متتاليين .. ولم يكن أحدهما يشكو من شىء .. إن الشيوخ يموتون .. هذا حق .. لكن هناك دائمًا تفسيرًا للوفاة .. لا بد من مرض ما .. »

قال (أوشيمو) :

ـ « أنا فحصت هؤلاء أمس .. وكانوا جميعًا بحالة جيدة فيما عدا عجوزين يعانيان من هبوط عضلة القلب ، ولم يموتا بعد .. »

تبادلنا النظرات برهة .. وأخيرًا شعروا بما شعرت به أنا .. هذه القبيلة ليست على ما يُرام .. ثمة شيء يخفيه هؤلاء القوم عنا .. كنت أشعر به طيلة الوقت لكنى لم أفصح عنه .. إن أنسب طريقة كى تنال المرأة سخرية الرجال ، هى أن تتحدث عن حاستها السادسة .. والسابعة .. والثامنة ..

لكنهم ـ حمدًا لله ـ ليسوا حمقى إلى هذا الحدّ ..

أخيرًا قال (بسّام) ما كنا نفكر فيه جميعًا :

ـ « يجب أن نرى هذه القبور ! »

نظرنا له جميعًا ولم نعلّق .. إن واجبنا لن يكتمل ما لم نقم بهذا الجزء من المهمة .. وتدخل (جابرييل) ليقول ما كنا نخشى أن يقال :

ـ « حذار ! هذا خرق شنيع لتقاليد (التابو) الدينية .. أنتم رأيتم جنازة الشيخ ولاحظتم أن حاملى الجثمان كانوا يمسكونه بقطع من القماش ، وأن أيًا من النسوة لم يسمح لها بفتح عينيها لترى الجثة ..

ممنوع لمس الميت أو رؤيته ، وإلا صار الفاعل ممنوعًا من لمس الطعام أو الماء .. باختصار يغدو الفاعل نجسًا محكومًا عليه بالموت كالأفعى .. هذه هى تقاليد (التابو) التى تعتنقها كل القبائل البدائية .. ومعنى أن نخرق نحن هذا (التابو) أن حياتنا لن تساوى الثرى الذى سنزيحه من فوق تلك الجثة .. »

قال (شلبى) فى رصانة وهو يرفع الشعر الأشيب عن عينيه :

ـ « هذا صحيح .. ولكن فى حالة واحدة : لو عرفوا أننا فعلناها .. »

ثم أعاد إشعال سيجاره وقال :

ـ « هذه الليلة نخرج من القرية ونرى مقبرتهم هذه .. إن فحص الجثة قد يكون كافيًا ، وإلا حملنا معنا عينات إلى (سافارى) .. سأؤجل موضوع الاتفاق مع بروفسور (بارتلييه) إلى ما بعد جولة الليلة الاستكشافية .. »

★ ★ ★

وكذا قضينا وقتنا فى التخطيط لعملية التسلل ..

إن لكل مشكلة صعابها .. فلن تكون مشكلتنا

بالتأكيد متعلقة بالدوائر التلفزيونية ، والخلايا الكهروضوئية التى تقطع الأبواب ، ولا هى متعلقة بالكلاب المدربة .. مشكلتنا ستكون متعلقة بالرماح والمشاعل والآذان المرهفة التى تسمع وثبات البرغوث فوق الملاءة ..

وعندما جاء المساء خرجنا فى ساعة متأخرة لتفقد أكواخ القرية ..

القوم ودودون حقًّا .. ودودون أكثر من اللازم لو أردت الصراحة .. وهو ما يذكرنى بفيلم (جنون) لـ (هتشكوك) .. كالعادة يكون سفاح الشقراوات هو ألطف وأوسم رجل فى الفيلم ..

وما بين كوخ وآخر كان أحدنا ينسلّ فى الظلام ، ليخرج من السياج الذى يحيط بالقرية .. ونظرًا لانتشارنا كان من العسير تحديد من الموجود ومن المختفى .. وهكذا يمكن القول إن (ليوبولد) و(بسّام) و(أوشيمو) قد تمكنوا من مغادرة القرية ..

بعد قليل تسلّلت أنا فى الظلام وكانت القرية قد نامت أو كادت ، ولم يكن هناك حرّاس .. كان الأمر أسهل مما توقعت ..

سيبقى (شلبى) و(جابرييل) لتغطية اختفائنا ، ومعهما (هسلر) ..

فقط علىَّ أن أجد الآخرين على ضوء القمر الخافت الذى يجىء فى خفر من وراء سحابة ما ..

كان (بسّام) واقفًا فى الظلام وقد أحاط كشافه بكفه ليقلل من انتشار ضوئه ، وسمعته ينادينى بهمس مسموع :

ـ « بست ! (برنادت) ! هنا .. »

لحقت به وقلبى يثب فى فمى ، وسرنى أن رأيت الحارس (ليوبولد) ضخم الجثة قد أمسك بمسدسه ، أما (أوشيمو) فكان يلوح برفش معلنًا استعداده للبدء .

ـ « ومن أين نبدأ ؟ »

ـ « بالاستبعاد : ليس بقرب النهر ولا قرب غابة (الماهوجنى) .. إنهم يدفنون موتاهم فى مكان قفر ، ويدفنونهم جالسين ، وفى وضع مرتفع عن الأرض بعيدًا عن الضباع .. »

كراااش !

سمعت الصوت تحت حذائى فقلت لنفسى :



لكنى كنت أسلط ضوء الكشاف على الأعشاب تحت قدمى ، وانحنيت لألتقط هذا الشىء ..

إننى (دعست) شيئًا زجاجيًا هشًا .. زجاجيًا ؟ غريب هذا ! ليس الزجاج من الأشياء المنتشرة جدًا فى الدغل ..

ـ « كشافك يا (بسَام) .. »

ـ « لِمَاذا ؟ هل هناك ثعبـ ..... ؟ »

لكنى كنت أسلط ضوء الكشاف على الأعشاب تحت قدمى ، وانحنيت لألتقط هذا الشىء .. ووضعته على كفى ثم نهضت .

تأمله الآخرون فى صمت بضع ثوان .

وفى صوت مبحوح تساءل (أوشيمو) :

ـ « هل فقد أحدنا عويناته ؟ لعله (هسلر) ! »

قال (بسَام) وهو يلتقطها بين أنامله :

ـ « بالطبع لا .. لقد كان يرتدى عويناته منذ عشر دقائق .. وكذلك (شلبى) .. هذه العوينات من مصدر خارجى .. »

وتحسَس الذراع الملتوى ، والزجاج المهشم وقال :

ـ « أجرؤ على القول إن هذه العوينات تخصَ أحد العلماء الستة المفقودين .. نحن لم نَر صورهم .. لكن كل العلماء يضعون العوينات .. »

- « ولماذا سقطت هنا ؟ »

- « بالتأكيد لأن صاحبها لم يعد بحاجة إليها ! »

وتنهدتُ قائلة وأنا أرتجف :

- « (الكيكويو) يكذبون .. ولكن لماذا يكذبون ؟ لماذا ؟ »

ولا أدرى كم من الوقت وقفنا هناك نتبادل النظرات المتوجسة ..

وصوت الضحكات المجنونة يدوى من بعيد .....

★ ★ ★

الجزء الثالث

عن النجدة التى لا تجىء

بقلم د. علاء عبد العظيم

« مشكلة التشخيص الطبى شبيهة بمشكلة العميان الذين وجدوا فيلاً .. فتحسس أحدهم خرطومه وقال : الفيل أنبوب غليظ . وتحسس أحدهم ذيله وقال : الفيل أشبه بالفرشاة .. وتحسس أحدهم أذنيه وقال : الفيل مروحتان عملاقتان .. »

« وفى الطب نقابل هذا الموقف كثيرًا .. نعالج الإسهال على حدة .. وداء البول السكرى على حدة ، ولا يخطر ببالنا أن ننظر للأمر نظرة شمولية فندرك أنه سرطان البنكرياس ! »

١ ـ الآن يجىء دورنا !!

فرغ (جيديون) من عرض صوره علينا ، وتفسيرها ..

فما إن انتهى حتى نهضت صارخًا :

ـ « هل رأيت يا (بروفسور) ؟ كان علينا تأجيل الحملة حتى نفرغ من تقارير (الباثولوجى) .. لكنك لم تصغ لى ورحت تتحدث عن المشاة الذين يحتلون المواقع الأمامية .. »

نظر لى (بارتلييه) غير مصدق أننى أكلمه بهذه اللهجة ، وارتجَ عليه كدأبه كلما عومل بعنف .. ثم استجمع أعصابه وقال :

ـ « اسمع أيها الشاب .. أنا لن أسمح لك بأن تخاطبنى بهذه اللهجة .. لن أسمح لك أبدًا .. »

ـ « ولكن الأمر خطير ...... »

ـ « أطلب منك اعتذارًا الآن وإلا يمكن لوحدة (سافارى) الاستغناء عن خدماتك حالاً .. إن خسارة (بلطجى) لن تؤذينا كثيرًا .. »

ـ « ولكن ...... »

ـ « الآن ! »

ـ « ليكن .. أعتذر .. »

قلتها فى تهذيب .. فلم يكن أول ما أتمناه هو أن أُطرد من (سافارى) لأعود خالى الوفاض إلى (مصر) ، مع اتهامى بقلة الحياء ..

قال (جيديون) وقد بدا مستمتعًا بكل هذا :

ـ « دعنا من هذا التطويل ، ولنتفق الآن على منهجنا فى العمل .. أرى يا بروفسور (بارتلييه) أن تطلب عودة الحملة دون إبطاء .. »

ـ « كنت أتمنى هذا .. » ـ قال (بارتلييه) هذا وقد بدأ يهدأ نوعًا ـ « لكن جهاز اللاسلكى الذى يحملونه قد تعطَل أو تهشَم .. »

ـ « إذن لا مفر من طلب وزارة الصحة .. »

ـ « هذا حق .. ولسوف يقومون بترتيب الأمر مع الجيش .. لا أجد حلاً آخر .. »

ومدَ يده إلى أزرار الهاتف ، قبل أن يقول :

ـ « الحق أننى كنت أفكر فى حملة ثانية .. لهذا طلبت (علاء) .. فهو شاب متحمس ويتمتع بعدوانية لا بأس بها ، مما يناسب حملاتنا هذه .. »

نظر لى (جيديون) فى مكر ، وقال :

ـ « أنا متأكّد فقط من نقطة العدوانية هذه .. لكن دعنى أصارحك يا سيّدى ، إن الوضع هناك غامض تمامًا ، وقد يحدث أى شىء .. فلا أجد جدوى من إرسال حملة ثالثة لا تعود بدورها .. لقد فقدت منظمة الصحة العالمية ستة من رجالها ، وفقدت (سافارى) ستة عناصر ممتازة ، أو هى فى سبيل فقدها .. أرجوك لا داعى لزيادة عدد الضحايا .. »

قلت للمرة الأولى منذ تم توبيخى :

ـ « لكن الحملة الثالثة تعرف ما ينتظرها .. وهذه نقطة فى صالحها .. »

قال المدير وهو يعاود لمس أزرار الهاتف :

ـ « ليكن يا (علاء) .. يمكنك الانصراف ، وأبق ما قلناه لك سرًا .. لكن كن على أهبة الاستعداد .. »

★ ★ ★

فى الصباح جلست فى عيادة الأمراض الباطنية مع د.(دوالا) .. سألنى عن أخبار الحملة فقلت له كاذبًا : إنها بخير ..

ثم لم أجد قدرة على الكتمان .. تذكّرت قصة الحلاق

الذى كان يحلق للملك ، وكانت لدى هذا الأخير أذنان هائلتا الحجم ؛ وكان الحلاق يكتم السرّ تحت طائلة الإعدام .. أخيرًا كاد الكتمان يقتله .. فراح إلى الغابة وحفر حفرة كبيرة ، وركع جوارها وراح يهتف : الملك له أذنان كبيرتان ! الملك له أذنان كبيرتان !

فى الصباح خرجت من الحفرة نبتة لها ألف زهرة ، كل زهرة تهتف بأعلى صوتها : الملك له أذنان كبيرتان !

المغزى : كتمان السرّ مُرهق لأقصى حدّ .. لكن البوح به كارثة .. لكنى ـ برغم هذه القصة ـ لم أستطع الكتمان أكثر .. حكيت لـ (دوالا) كل مخاوفى وهمومى ، وكالعادة طلبت منه ألا يخبر أحدًا ..

سألته آملاً أن يقول ما يريحنى :

ـ « كل هذا هراء .. أليس كذلك ؟ »

ضاقت عيناه من وراء عويناته ، وقال بلهجته الإفريقية التى تحيل كل (سين) إلى (ثاء) :

ـ « لا تعتمد على هذا .. إن (جيديون) بارع فى عمله حقًا .. »

قلت فى ذعر :

ـ « وهل يتفق هذا مع ما تعرفه عن (الكيكويو) ؟ »
ـ « لا يتفق .. لكن (الكيكويو) الحقيقيين يعيشون فى (أوغندا) و (إفريقيا الوسطى) .. أما هؤلاء فقد اختلفت طباعهم كثيرًا .. »
ـ « وهل ستتدخل وزارة الصحة حقًا ؟ »
ـ « لا أظن .. فلا يوجد وباء واضح .. ولا توجد مشكلة قوية .. لو كانت هناك مشكلات فمن الواضح أنها هدأت .. ولا تنس أن (الكيكويو) ليسوا فى عداد المواطنين هنا ، ولن تنفق الحكومة مليمًا من أجل رفاهيتهم .. »
قلت له ما معناه :
ـ « فأل الله ولا فألك .. »

★ ★ ★

على أن الرجل كان يعرف حكومته جيدًا ..
وعند العصر استدعانى (بارتلبيه) ليخبرنى أن وزارة الصحة (ستبحث الموضوع) ، وهذا معناه أن ثلاث أو أربع سنوات ستمرّ قبل أن يقرر هذا الموظف أو ذاك أن يمسك بملف (الكيكويو) ليرى حقيقة هذا (الموضوع) .. توطئة لأن يعلن أنها شوشرة مدبّرة ..

وسألنى فى انكسار :
ـ « هل أنت مستعد للرحيل ؟ »
ـ « بالتأكيد .. »
ـ « وما سرّ هذا الحماس المفاجئ ؟ »
قلت له فى كبرياء ، وكنت أظنه يفهم جيدًا دون أن يسأل :
ـ « سيّدى .. لستُ ممن يضحّون بحياتهم من أجل الإنسانيّة أو تقدم العلم أو ما إلى ذلك .. فكلها تبدو لى شعارات بلا معنى .. لكنى أضحى بحياتى بالتأكيد من أجل أسرتى وأصدقائى .. هنا يغدو للكلام معنى ملموس ، ويمكننى ـ فى لحظة الاحتضار ـ أن أنظر إلى السماء .. وأقول لنفسى إننى مت لسبب واضح محترم .. »
ـ « هذا منطقى .. لكنى أرجو ألا تضطر للموت وأنت ترمق السماء .. فأنت ـ كما قلت ـ تعرف ما ينتظرك .. »
ثم مدّ يده إلى صندوق جوار مكتبه ، فوضعه على المكتب وقال :
ـ « هذا هو ما حصلت عليه .. قنابل دخان ..

قنابل مسيلة للدموع .. أقنعة غاز .. مسدسات إشارة .. وخطة جيدة .. »

- « هذا جميل .. لكن ماذا عن القتل ؟ »

- « لن يكون هناك قتل .. أنت طبيب ولست جنرالاً بريطانيًا .. »

- « أعرف هذا وأتمناه .. لكن الخطر وارد .. »

- « سيكون معكم بنادق آلية .. لكن لا تستعملوها .. »

- « نحن ؟ »

ابتسم وقال وهو يتفقد محتويات الصندوق :

- « طبعًا .. فأنت لن تذهب وحدك .. إن (رامبو) يفعلها فى السينما ، لكنك لن تتقاضى راتب (سلفستر ستالون) أبدًا ! »

- « ومن أعضاء الفريق ؟ »

- « (بودرجا) - كالعادة - و (أندرسن) و (نظير) .. »

- « مصرى وكاميرونى وسويدى وهندى .. مجموعة غريبة حقًا .. »

- « كلكم - باستثناء (بودرجا) - شباب عصبيون متحمسون متعطشون للدماء ، وعلى شىء من الخرق .. وهذا يناسب الموقف .. »

ثم قال بلهجة رسمية صارمة :

- « د. (عبد العظيم) .. استعد للتحرك فى السابعة مساء .. »

★ ★ ★

وفى المساء وقفنا فى ضوء الكشافات يرمق بعضنا البعض .. كنت مرتاحًا لـ (بودرجا) رفيقى الدائم التعس فى المصائب ، لكنى لم أكن أعرف الاثنين الآخرين جيدًا ، وبدا لى (أندرسن) ثقيل الظل نوعًا .. لكننا لسنا ذاهبين إلى الملاهى بطبيعة الحال .. وكان يعمل خبير أوبئة فى الصحة العالمية قبل أن يلتحق بـ (سافارى) ..

ورفعت رأسى لأعلى لأرى عشرات الوجوه ترمقنا فى فضول من النوافذ والشرفات .. لقد خرج كل عاملى (سافارى) لرؤية هذه اللحظة النادرة : أربعة رجال يذهبون إلى الجحيم ..

خفضت عينى كى لا أرى هؤلاء الحمقى ، وسألت (بودرجا) :

- « هل تأكدت من كل شىء ؟ »

هزّ رأسه فى تعاسة ، وبصق جذوره الحمراء التى يلوكها دومًا :

- « تفو ! كل شىء يا دكتور .. وكم أودّ لو أخذتم غيرى .. كأنه لا يوجد سواى فى هذا المستشفى ! »

- « إننا نعتمد على خبرتك بلغات وعادات الأهالى .. »

- « إن ما أعرفه عن (الكيكويو) لا يزيد على معلومات (الكيكويو) عن (باريس) .. والحق أننى راغب فى إعفائى من كل هذا .. »

لقد فات الأوان ..

فقد راحت مروحة الهليوكوبتر تدور .. وتدور .. معلنة أن أوان الرحيل قد جاء ..

ترى كيف رآنا أولئك الواقفون ، ونحن نتلاشى فى الظلام وسط الهدير والغبار والأضواء المتقطعة ؟

طائر الموت يحمل فرائسه إلى الجحيم ..

★ ★ ★

٢ - قريـــة أخـــرى ..

قال (أندرسن) وهو ينظر إلى ساعته :

- « أمامنا ربع ساعة ونصل إلى أولى القرى يا (جومبا) .. »

قلت له وأنا أصدم رأسى بالسقف ، كعادتى منذ ركبنا السيارة :

- « آى ! نريد ذات القرية التى أوصلت إليها الفريق السابق .. »

قال (جومبا) بفرنسية شنيعة :

- « لم تخبرنى بهذا من قبل يا دكتور .. معنى هذا أن ندور حول الدغل ، ونطيل رحلتنا ساعتين أخريين .. إن قرى (الكيكويو) كثيرة ، ولم تحدّد لى إحداها بالذات .. »

قال (أندرسن) نافد الصبر وهو يمشط شعره الذهبى :

- « ليكن .. سنبدأ بهذه .. على أن تعود لنا بعد يوم .. »

وصلنا إلى القرية التى كانت محاطة بسياج بدائى ..
وشممنا رائحة بول الأبقار (النوشادرية) إياها ، وهى الرائحة التى اعتدنا شمها لدى (البانتو) ، وكل القبائل الذين يحبون دهان رءوسهم بهذا السائل الشنيع .. ولمحت نساء (الكيكويو) صلع الرءوس بأحمالهن المميزة على ظهورهن .. والأقراط العملاقة إياها التى تجعل شحمتى الأذنين تصلان إلى أعلى الكتفين ..

اتجهنا إلى الزعيم وسط حشد الفضوليين إياهم ..
كان أصلع الرأس يرتدى حليًا أكثر من اللازم ، وكان مهيبًا كما للزعماء أن يكونوا .. لكنه يضحك فى مودة كاشفًا عن أسنان بيضاء ..
قال (بودرجا) بعد محادثة مختصرة مع الرجل :
ـ « أعتقد ـ أننى لا أجيد لغتهم كما تعلمون ـ إنه يرحب بنا ، وسيضع كل إمكانيات القبيلة تحت تصرفنا .. »
سأله (نظير) وهو ينزل حقيبة ظهره الثقيلة :
ـ « سله عن الحملة السابقة .. هل سمع عنها شيئًا ؟ »
قال (بودرجا) بعد محادثة مختصرة أخرى :

ـ « يقول إن هناك عشر قبائل هاهنا من (الكيكويو) .. فلماذا نسأله هو بالذات عما لا يعرف ؟ »
ـ « وماذا يعرف عن الوباء ؟ »
هنا أجاب الرجل إجابة بليغة جدًا .. مطَّ شفتيه وأصدر صوتًا خاصًا جدًا هو : بف ف ف !
ـ « إنه يقول ..... »
ـ « لا داعى للترجمة .. يقول : هذا هراء ! »

★ ★ ★

وفى كوخنا الذى اخترناه للسكنى ، كان علينا أن نزيل كل روث الماشية وفضلات الدجاج و ... و ...
قال (أندرسن) وهو ينزع حذاءيه الثقيلين :
ـ « إن لهؤلاء القوم عادات غريبة .. روث الماشية فى كل مكان حتى على أبواب الأكواخ .. »
سألته فى دهشة من لم يلحظ هذا :
ـ « أحقًا ؟ »
ـ « نعم .. ألم تر باب كل كوخ ؟ يضعون القاذورات على يمينه كأنما هى عادة يتفاءلون بها .. »
ـ « إن الثقافات تتباين .. »
قال (بودرجا) وقد رأى أن يدلى بدلوه :

ـ « الغريب أن أكثر أسماء هؤلاء هى (مولجا) .. ما فائدة الأسماء إذن ؟ »

قال (نظير) باسمًا :

ـ « يذكرنى هذا ببعض قرى (ماليزيا) .. يقولون إنك لو رميت حجرًا من فوق جبل ، لكانت الفرصة تسعين بالمائة فى أن يسقط الحجر فوق رأس من يُدعى (محمد توار) ! »

ساد الصمت برهة .. ثم قال (أندرسن) بلهجة حادة :

ـ « والآن .. من يتولى قيادة مجموعتنا هذه ؟ »

قال (نظير) وهو ينظر لى بعينين شديدتى السواد :

ـ « بالطبع د. (عبد العظيم) .. فهو أكثرنا علمًا بالموضوع .. ويخيل لى أنه يعرف أكثر مما يقول .. وهذه ـ لعمرى ـ نقطة شديدة الخطر .. فما دمنا فى ذات السفينة فمن الخير لنا جميعًا أن نعرف بشأن العواصف القادمة .. »

كاذبًا قلت وأنا أتحاشى نظراتهم :

ـ « أنا لا أعرف سوى ما تعرفون .. صدقونى .. لكنى ـ حتمًا ـ أقبل أن ترشحونى قائدًا .. فإن لم يكن فأنا أرشح (أندرسن) .. »

بالطبع لم أعلن سبب ترشيحى لـ (أندرسن) .. فالأشخاص الذين لا يبالون بأن يكونوا ثقيلى الظل ، ولا يبالون بارتياح الآخرين لهم ؛ هؤلاء الأشخاص يكونون دائمًا قادة ممتازين .. خاصة إذا كانوا أكفاء مثل (أندرسن) .

قال (أندرسن) فى برود :

ـ « أنا غير راغب فى هذا الشرف العظيم .. والآن ما هى خطتنا هاهنا ؟ »

هذا معناه أننى القائد .. لذا قلت فى برود مماثل :

ـ « سنقوم بفحص كل مرضى هذه القبيلة ، ونلاحظ عادات هؤلاء القوم جيدًا .. لن نجد شيئًا مهمًّا فى الغالب ، لأن هذه القرية ليست ذات القرية التى زارها أصدقاؤنا .. فى الغد نتجه إلى القرية المنشودة حيث الخطر الحقيقى والعمل الحقيقى .. »

★ ★ ★

راحت الطبول تهدر ..

وسمعنا صوت جوقة رجالية تتبادل الغناء مع جوقة نسائية ، وكان تناغم الأصوات رائعًا حقًّا ..

خرجنا من الكوخ لنرى المشهد التقليدى : النار مشتعلة ، وأفراد القبيلة يرقصون حولها .. وتذكرت هنا ملحوظة قرأتها فى كتاب (إفريقيا ترقص) للمستكشف الإنجليزى (جيفرى جور) .. كان قد لاحظ أن أفراد القبائل البدائية عراة تمامًا إلا فى أوان الرقص .. عندها يرتدون الجلابيب والأقنعة والريش وكل ما من شأنه أن يخفى أجسادهم ..

لم يكن القمر بدرًا بل كان أقرب إلى الهلال ، وهذا غير معتاد فى الرقصات الإفريقية الدينية ..

قال (بودرجا) وقد بدأ نصفه السفلى يتحرك لا شعوريًا مع الإيقاع ..

ـ « هذه رقصة (جافارا) .. قادمة من (فولتا العليا) .. إنها تمجد (الطوطم) الذى يحمى القبائل من الوحوش .. »

وتأملته فى اهتمام .. لم يكن لاهيًا بل هو الجد بعينه .. هنا فقط صدقت حقيقة أن الإفريقى يسمع الموسيقا بجسده قبل أذنيه ..

رحنا نتأمل الرقصة فى اهتمام .. فهذه أشياء لا يراها المرء مرتين ..

ودنا (بودرجا) ـ دون أن يكف عن الاهتزاز ـ من أحد الراقصين ، وراح يسأله والراقص يجيب وهو يتواثب كالبرغوث ..

ثم عاد (بودرجا) ليقول لنا :

ـ « إنها رقصة إعداد الشيوخ للموت .. يمارسونها أسبوعيًا .. »

وبالفعل رأينا ستة من الشيوخ الفانين يخرجون ليمشوا فى صف واحد نحو الزعيم ، الذى راح يلوح بسكين عملاقة على سبيل تمثيل القتل ، وراح كل شيخ يمثل الموت ..

بعدها جاء ثور عظيم لينهالوا عليه جميعًا بنصال المدى .. وهو مشهد مروع حقًا .. وحمدت اللّه على أنهم لم يذبحوا بقرة حتى لا يفقد (نظير) أعصابه ، فهو هندوسى لا يتحمل رؤية بقرة تذبح .. من الأكثر خبالاً ؟ عابد الأبقار أم عابد (الطوطم) الذى يحاول إرضاءه بذبح الأبقار ؟

جاء رجلان يحملان فخذ ثور ووضعاها أمامنا بما معناه أن هذه هديتنا .. فهززنا رءوسنا شاكرين ..

وقفنا نرمق المشهد الرهيب ، ثم وجدت (أندرسن)



نظرت إلى اتجاه نظراته ، فرأيت أحد الراقصين المقنعين يترنح فى حركات عصبيّة مبالغ فيها ..

يجذبنى من كمى فى إشارة معناها (هل ترى ما أراه ؟)

نظرت إلى اتجاه نظراته ، فرأيت أحد الراقصين المقنعين يترنح فى حركات عصبية مبالغ فيها .. كان يتواثب .. تتفكك قدماه ليهوى على الأرض .. ينهض .. يواصل الرقص المجذوب ..

كان يقهقه بصوت عال مجلجل .. وحين نظرت إلى قدميه أدركت أنه فقد التحكم فى مثانته ، فالبول كان يتساقط منه دون أدنى محاولة للسيطرة من جانبه .

كان هذا كافيًا لأن الرجال أحاطوا به ، وحملوه مبتعدين ..

هرعنا لنلحق بهم ، لكن الزعيم (مولجا) رفع كفه فى وجهنا وهو يضحك كاشفًا عن أسنانه البيضاء المدببة ، وقال بضع عبارات ترجمها لنا (بودرجا) :

- « يقول ألا نقلق .. فهذا الرجل أفرط فى احتساء الخمر المحلية المصنوعة من جذور (الكسافا) المختمرة .. سيكون على ما يرام عند الصباح .. فلا داعى لإفساد الحفل .. »

★ ★ ★

فى كوخنا وجدت (أندرسن) جالسًا على ضوء كشاف (النيون) المتألق يمسك بكتاب طبى سميك ، فما إن رآنى حتى قال ما كنت أنتظر أن يقوله :

ـ « ما رأيك ؟ »

جلست وقلت وأنا أتنهَد :

ـ « مثل رأيك .. »

ـ « هذا الرجل ليس ثملاً .. ما هكذا يتصرف السكارى .. إنه مصاب بخلل فى المخيخ .. لهذا فقد قدرته على التوازن .. »

ـ « وماذا تقول لو كان هذا الخلل وبائيًا ؟ »

ضاقت عيناه الزرقاوان وقال :

ـ « لا يمكن أن يكون وبائيًا إلا فى داء (الكورو) .. ولكن (الكورو) ليس موجودًا فى (إفريقيا) .. إنه مقصور على قبائل الـ (فور) فى (غينيا الجديدة) .. وبالتحديد فى الشرق .. جنوبى جبل (ميشيل)(*) .. »

ـ « يبدو أنك كنت هناك .. »

(*) بابو غينيا الجديدة : جزيرة تقع قرب (أستراليا) شمالاً .. ومازال أهلها على الفطرة ..

ـ « لا يمكن لخبير أوبئة ألا يزور (غينيا الجديدة) .. إن كل شىء موجود هناك .. »

قلت له وأنا أزن كلماتى :

ـ « حتى لو لم يكن (الكورو) .. هل توافقنى على أنه فيروس بطىء ؟ »

ـ « لو كان وبائيًا فلا يوجد تفسير آخر .. »

وظللنا نتبادل النظرات لمدة لا يعلم سوى اللّه (سبحانه وتعالى) طولها ..

* * *

كيف نتأكد ؟ كيف ؟

* * *

٣ - كـــورو !

ثمة حلقة مفقودة .. لكن ما هى ؟

★ ★ ★

عند منتصف الليل عاد لنا (بودرجا) من الحفل .. كان ثملاً تمامًا بعد ما شرب أنهارًا من خمر هؤلاء القوم ، تبًا له من أحمق ! راح يغنى أغانى (البانتو) ويتأرجح ويقول ما معناه (أنا جدع) بلغته ..

أسند (نظير) رأسه إلى باب الكوخ ، وهو يوبخه بعنف :

- « تبًا لك من طفل ! كأن هذا ينقصنا .. هات دلو الماء يا (علاء) !

ناولته الإناء الجلدى الذى ملأته لنا النسوة من النهر ، فرفعه ودون رحمة قذفه فى وجه (بودرجا) ..

انتثر الماء فى كل صوب ، وبدا الإفريقى كأنما تلقى صفعة عاتية على وجهه ، فراح ينظر لنا مذهولاً ، لسان حاله يقول : أين أنا ؟

شرعت أعيده إلى الكوخ ليغفو هناك ، حين وجدت (أندرسن) يقف جوار مدخل الكوخ يتأمل شيئًا ما ..

- « ماذا هناك ؟ »

كان الماء قد غسل جزءًا من الجدار المجدول ، وتساقط جزء من روث الماشية الملتصق به ، من ثم استطعنا أن نرى رقمًا كتب بفرشاة بيضاء بحروف عربية ..

أزال (أندرسن) مزيدًا من القاذورات بخرقة مبتلة ، واستطعنا أن نرى بوضوح تام الرقم (12) ..

- « من رسم هذا ؟ »

قلت وأنا أتأمل المشهد واجمًا :

- « بالتأكيد أحد أصدقائنا المختفين .. هذا هو أسلوب (سافارى) فى ترقيم الأكواخ .. ولم يجد رجال القبيلة طريقة لمداراة هذه الأرقام سوى بتغطيتها بالقاذورات .. »

نظر لى (أندرسن) قلقًا :

- « إذن هؤلاء القوم يكذبون .. »

- « وهذا لا يعنى خيرًا فيما يتعلق بمصير السابقين .. »

ـ « وسائقنا كذلك كذب حين اقتادنا إلى القرية ذاتها زاعمًا أنها ليست هى .. »

ـ « لا بد أنه من (الكيكويو) الذين استقروا فى المدينة .. »

ـ « الأمر كله ألعوبة تم تدبيرها بإحكام لتغدو مصيدة للحمقى .. »

واتجهت إلى صندوق السلاح ، فتحققت من أن البنادق فى مكانها ، وقلت بلهجة آمرة :

ـ « لم يبق أمامنا سوى الفرار .. فالسائق لن يعود .. »

قال (أندرسن) :

ـ « ثمة نقطة فى صالحنا هى أنهم لا يعرفون أننا نعرف .. لذا دعنا نعد تغطية الرقم المكتوب على الكوخ ، وفى الصباح نخرج لهم بوجوه بريئة مشرقة ونعلن أننا نريد زيارة قرية أخرى .. »

ـ « ومتى نعرف الحقيقة ؟ »

ـ « سنعرفها حين نعود مع كتيبة من الجنود المسلحين .. »

قال (نظير) مؤمنًا :

ـ « هذا حق .. محاولة الفرار الآن ستخبرهم أننا عرفنا أكثر مما يجب .. وعندها قد نقتل عشرة منهم بأسلحتنا قبل أن يمزقنا الباقون .. »

نظرت لهم وبدا الكلام مقنعًا .. فهززت رأسى وأعدت إغلاق الصندوق .. لكنى كنت أعرف أية ليلة سوداء تنتظرنا ..

كان علىَّ أن أكفَّ عن الإرسال ..

★ ★ ★

(برنادت) .. أين أنت ؟

أتراك زوجةَ الزعيم تعدين له (الكسافا) ؟ أم تراك فى قبر بين هذه الأدغال ؟ أم تراك فى معدة أحدهم ؟

المصيبةَ هى أن كل هذه الاحتمالات شنيع ..

لكنى لا أجد احتمالات أخرى أكثر بهجة ..

★ ★ ★

وفى الساعات الأولى من الفجر تمَّ كل شىء بسرعةَ ..

أنتم تعرفون كيف تتم هذه الأشياء السخيفة .. لهذا لن أطيل الوصف .. يكفى أن أذكر أن اليد التى كممت فمى كانت قذرة جدًّا ، وأن (بودرجا) لم يقاوم ..

وأن (أندرسن) وجه لكمة إلى فك أحد المعتدين ، لكنه - جزاءً وفاقًا - تلقى ضربة مروعة بالهراوة على مؤخر عنقه .. وبالطبع لم يستطع الطبيب السويدى الضعيف أن يظل على قدميه حتى ولو كان ثقيل الظل ..

لقد صرنا تحت رحمتهم تمامًا .. ولكن أين قدر الماء المغلى ؟ يبدو أنهم لم يصلوا درجة التحضر التى تجعلهم يعافون اللحم النىء ..

★ ★ ★

وفى هواء الفجر البارد ، شعرت بهم يحملوننا - ثلاثة رجال لكل واحد منا - إلى خارج القرية .. لم نقاوم فالمقاومة ستزيد الأمور سوءًا ..

وسمعت صوت الزعيم يصدر بغلظة تعليماته لرجاله ..

لقد انتهى عصر المودّة والضحكات التى تكشف عن الأسنان البيضاء المدببة .. لقد كانوا عمليين جدًّا .. لكنى كنت الوحيد الذى يملك فكرة معينة عما ينتظرنا هاهنا ..

كنا الآن قد اجتزنا حاجزًا من الأشجار ، وها نحن

أولاء فى فرجة منها .. واستطعت أن أسمع صوت ضحكات .. ضحكات مجنونة مجلجلة .. ورأيت - فى وضع أفقى بالطبع لأننى محمول - سياجًا .. لا .. بل هى أقفاص خشبية .. تم صنعها من أغصان الأشجار المجدولة بحبال من ليف ..

وبالداخل رأيت العيون البيضاء تلتمع .. تدور فى محاجرها كعيون المجانين .. ورأيت العيون فى أجساد سوداء مترنحة ، لا تكف عن القهقهة ، تقهقه حتى تسقط على الأرض .. تقهقه حتى تفقد توازنها وترتطم بقضبان القفص ثم تهوى من جديد ..

يا للعذاب البشرى ! لقد رأيت فى حياتى صورًا مريعة للألم .. لكنى لم أر قط الألم الذى يقهقه صاحبه كالقرود ..

فى مرض الكزاز (التيتانوس) يضحك المريض ضحكة صفراء كاشفًا عن أسنانه ، ويسمونها (الابتسامة التهكمية) ..

لكنى لم أر قط قهقهة كهذه .. ولم أسمع عنها إلا فى مرض واحد فقط ..

★ ★ ★

وانفتح أحد الأقفاص ، وشعرت بأننى أطير فى الهواء لأسقط على الأرض دون رفق ..

ورأيت ـ فى ضوء النهار الوليد ـ (نظير) و(أندرسن) و(بودرجا) يطيرون بدورهم ليسقطوا جوارى ، ثم رفعت عينى فوجدت وجوهًا مألوفة .. وجوهًا ظننت أننى لن ألقى أصحابها أبدًا .

وشعرت بيد رقيقة تسند رأسى .. وثمة شعر أشقر ينحنى علىّ .. ثم سمعت الصوت الحانى يقول :

ـ « (علاء) ! حمدًا للّه على أنك بخير .. لكن أية حماقة ! »

قلت وقد بدأت أفهم ما هنالك :

ـ « (برنادت) .. حمدًا للّه على أنك بخير .. لكن أية كارثة ! »

دنا (بسّام) منى على ركبتيه .. وساعدنى على الجلوس ، ثم سألنى :

ـ « هل آذوك ؟ »

ـ « لا .. فقط عاملونى كجوال من الأرز .. »

وهنا رأيت الكدمات على وجهه ، وأدركت أن جرحًا قطعيًا يقسم شفة (برنادت) السفلى إلى نصفين شأن

من تلقت لكمة فى فمها .. وحين رفعت عينى رأيت أن (شلبى) كان أسوأ حالاً .. وأن (ليوبولد) حارس الأمن ليس معهم .. هو ميت طبعًا .. فلا تفسير لاختفائه سوى هذا .. أما (جابرييل) و(أوشيمو) فكانا على ما يرام كما أعتقد ..

قال (نظير) وهو يتحسّس نبض عنق (أندرسن) :

ـ « سيفيق بعد قليل .. ما لم يكن ارتجاجًا .. »

قلت وأنا أنهض على قدمين من عجين :

ـ « يبدو لى أنكم قاومتم أكثر منا .. »

قالت (برنادت) :

ـ « لأنكم أُخذتُم على حين غرّة .. أما نحن فكنا نتوقع الغدر .. فجأة وجدنا أنفسنا وسط هذه الأقفاص ، وكان هناك عشرة من رجالهم انهالوا علينا ضربًا وركلاً قبل أن نفهم ما يحدث .. »

ـ « وأين العلماء الستة ؟ »

ـ « لا ندرى .. »

ـ « وأين (هسلر) و (ليوبولد) ؟ »

ـ « أكلوهما ! »

★ ★ ★

دوّت الكلمة فى القفص فتجمد الجميع ..

كان قائلها هو (شِلبى) – بكسر الشين وتسكين اللام – الذى جلس على الأرض ، وشعره الأشيب يغطى إحدى عينيه ، وهو يلوك آخر سيجار لديه ..

وقد قال كلمته فى برود وموضوعية ، كأنما يتحدث عن تجربة علمية ، يلعب فيها دور المراقب المحايد .. وكأنما قال لنا إنهما – (ليوبولد) و(هسلر) – ذهبا إلى الحمام أو سافرا للنزهة ..

صاح (نظير) فى رعب وهو ينهض :

– « ما هذا ؟ إن (الكيكويو) لا يأكلون لحوم البشر ! »

بنفس البرود قال (شلبى) وهو يطلق حلقات الدخان من فمه :

– « هؤلاء يفعلون .. إنهم لا يلتزمون بالكتب كما هو واضح .. »

– « وأنتم رأيتم هذا ؟ »

– « بالطبع .. فى البدء أقاموا الحفل الصاخب فى القرية .. ثم جاءوا ليأخذوا اثنين من القفص .. »

سألته وأنا أتماسك بصعوبة بالغة :

– « هل يقيمون هذه الحفلات كثيرًا ؟ »

– « مرة أو مرتين فى الأسبوع .. وأحيانًا يعتمدون على كبار السنّ الذين رأيناهم فى الاحتفال .. إن الشيوخ يقبلون هذا الواجب برضًا تام ، ويعتبرونه تضحية دينية تستوجب الاحترام ! »

– « ومتى يقيمون الحفل التالى ؟ »

– « لا أحد يدرى .. ربما الليلة .. ربما بعد ثلاثة أيام .. »

– « وسيأكلون اثنين منا ؟ »

قال فى ملل وهو يطفئ السيجار ويدسه فى جيبه :

– « إنهم يتعاملون معنا كدجاج ينتظر فى عُشّه .. يفتحونَ باب العش وينتقون أسمن دجاجة أو دجاجتين متوسطتى الحجم .. الأمر مزاجى تمامًا كما ترى .. »

سأله (نظير) فى رعب ، وقد بدأت أعصابه تتخلى عنه :

– « وكيف تقبل ما يحدث بهذا الهدوء ؟ »

– « لقد مررت بمرحلة الرفض هذه ، واستعددت للموت بعدها .. ثم إن ما لدىّ من سيجار قد انتهى ، ولم تعد الحياة مما يثير شغفى ! »

ونهضت مترنحًا أتفحص القفص الخشبى .. كانت قضبانه غليظة حقًا من العسير التفكير فى تحطيمها .. أما الباب فكان مغلقًا بجنزير حديدى ثقيل يثبته قفل متين من طراز (ييل) ..

هؤلاء القوم ليسوا بعيدين عن الحضارة إلى هذا الحدّ ..

قال (أوشيمو) وقد رأى اتجاه عينىّ :

ـ « نعم .. لا بد أنهم وجدوا هذه الأشياء لدى حملة سابقة ، وقد تعلموا استخدامها .. لو كانوا يغلقون الباب بألياف مجدولة لكنا أحرقناها منذ زمن طويل .. »

وأضاف (بسّام) :

ـ « ثم إن الخروج لا جدوى منه .. فهناك عدد لا بأس به من الحرّاس المدججين بالسلاح .. »

عدت أسأل وقد اتضحت لى الأمور نوعًا :

ـ « وماذا عن الأقفاص الأخرى الملأى بالمجانين الضاحكين ؟ »

ـ « هؤلاء هم المرضى من أفراد القبيلة الذين

ملأتهم الأرواح .. وهم يحبسونهم هنا إلى أن يجد الساحر حلاً لمشكلتهم أو يموتوا .. »

ـ « وما هو هذا المرض ؟ »

قال (شلبى) وهو ينظر خارج القفص :

ـ « إنه (الكورو) أيها الشاب .. ظننتك فهمت ذلك بنفسك ! »

* * *



قال (شلبى) وهو ينظر خارج القفص :

ـ إنه (لكورو) أيها الشاب ..

الجزء الرابع

عن الأمل الذى لا يخبو

بقلم د. برنادت جونز

« أحيانًا يكون الأمل قاسيًا جدًّا .. حتى تحت نصل السكين ، يقول لك الأمل : لا تقنط .. الغوث آت حتمًا .. إن هذه الأشياء تحدث للآخرين فقط ! »

« الأذكياء فقط هم من كفوا عن التطلع إلى النجاة .. الذين عرفوا أنهم لن يعيشوا لمجرَّد أنهم هم ! »

١- فيروسات بطيئة ..

قالت (برنادت) :

- « فى الدقائق التالية تحدث البروفسور (آرثر شلبى) أستاذ طب المناطق الحارة عن داء (الكورو) .. كان يتحدَث عن شىء عرفه ورآه وغدا من خير المتكلمين عنه ..

فى البدء قال (أندرسن) السويدى فى إصرار (وكان قد أفاق أخيرًا) :

- « لا يوجد (كورو) فى (إفريقيا) .. الـ (كورو) مقصور على (بابو غينيا الجديدة) .. ولم يوصف قط خارجها .. »

قال البروفسور (شلبى) غاضبًا بعض الشىء :

- « الحمقى فقط هم من يرون الشمس ويصرّون على أنها غير موجودة يا بنى .. وبهذا الإصرار الغبى أصرّ اليهود والفريسيون على أن (يسوع) المسيح كاذب .. »

قال (علاء) موافقًا :

- « وبنفس الإصرار الغبى أبَى كفار (قريش) أن يتبعوا نبينا فى أيام الإسلام الأولى .. »

قال (شلبى) وقد اتخذ سيماء من يلقى محاضرة :

- « (الكورو) يا أبنائى هو داء ينجم عن فيروس بطىء .. هل لديكم فكرة عن الموضوع ؟ »

هزّ أكثرنا رأسه نفيًا فيما عدا (علاء) و(أندرسن) .. فقد كان الأول يعرف تفاصيل المرض من (جيديون) فى (سافارى) .. أما الأخير فكانت طبيعة عمله تجعله قريبًا من هذه الأشياء ..

استرسل د. (شلبى) قائلاً :

- « إن عائلة الفيروسات البطيئة تشترك جميعًا فى أنها تخرّب المخ على فترات زمنية طويلة جدًا .. وفترات حضانتها لا تقدَر بالأيام كباقى الأمراض .. ولكن تقدَر بالسنين ..

« لا بد أنكم سمعتم عن (جنون البقر) والذى نسميه نحن بـ (الخلل المخى الإسفنجى فى الأبقار) .. هذا المرض نموذج جيد للفيروسات البطيئة التى ليست بالضبط فيروسات ؛ لكنها أقرب إلى أجسام بروتينية نسميها (بريونات) ..

« ويوجد ـ كما تعلمون ـ مقابل آدمى لهذا المرض اسمه مرض (جاكوب ـ كروتزفلت) .. ولقد ثار جدل كبير حول انتقال هذا المرض للإنسان من الأبقار المريضة .. لكن هذا ليس موضوعنا .. »

« ومنذ أعوام طويلة ، عرف العلماء بوجود مرض معين فى قبائل الـ (فور) فى (بابو غينيا الجديدة) .. هذا المرض يُدعى (كورو) .. »

« إن الفيروس ـ أو (البريون) ـ يتسلل إلى المخ .. فيهاجم المخيخ بالذات مسببًا تحلله ، ولهذا صورة باثولوجية مميزة : يمتلئ المخ بالتجاويف ، ومادة (الأميلويد) ، وتتحوّل الخلايا العصبية إلى ما يشبه الطوربيد .. »

قال (علاء) فى حماس :

ـ « حقًا .. هذا هو ما وجده (جيديون) فى مخ العملاق المجنون .. »

مطّ (شلبى) شفته السفلى فى اشمئزاز وقال :

ـ « إن (جيديون) أحمق كبير .. لكنه ـ والحق يقال ـ يفهم فى علم الأمراض .. »

كان منظرنا غريبًا حقًا ونحن جالسون على الأرض

فى القفص الخشبى ، نصغى لهذه المحاضرة العلمية .. لكنها كانت أهم محاضرة نسمعها فى حياتنا .. لقد كانت تحدّد مصائرنا ..

استطرد (شلبى) قائلاً وهو يعيد إشعال السيجار :

ـ « وكما قلت تكون فترة الحضانة طويلة جدًا .. حوالى عشرة إلى عشرين عامًا .. بعدها تبدأ الأعراض التى نعرفها الآن جميعًا :

جنون عام .. فقدان توازن .. رجفة .. تشنجات أقرب إلى الرقص البطىء .. فقدان السيطرة على البول والبراز .. ثم ـ دائمًا ـ الضحك الذى لا يتوقف .. »

« تدريجيًا يدخل المريض فى غيبوبة .. ويكون الموت الذى لا مفرّ منه خلال عامين على الأكثر .. »

« الحق يُقال إن هذا المرض نعمة من الله (سبحانه وتعالى) .. فقد استطاع أن يخلّص المجتمع من إنسان (نياندرثال) آكل لحوم البشر كى يبقى الإنسان المتحضر الحالى .. »

سألته وقد فاتنى فهم عبارته الأخيرة :

ـ « لحظة .. ما دور أكلة لحم البشر هنا ؟ »

قال باسمًا :

- « السبب يا صغيرتى هو انتشار عادة أكل مخ الموتى - على سبيل الحداد - لدى قبائل (بابو غينيا الجديدة) .. وكان هذا هو سبب ظهور المرض هناك .. وحين استطاعت حكومات (الكومنولث) منع هذه العادة البذيئة بدأ المرض ينحسر فى عام ١٩٥٧ .. »

- « يا للهول ! »

هنا قال (بسّام) وقد اتضح له الأمر :

- « هكـذا إذن .. إن قبائل (الكيكويو) فى (الكاميرون) تأكل أمخاخ الشيوخ منذ زمن .. وكان لا بد لعشرة أعوام أن تمرّ حتى تظهر الصورة الوبائية الكاملة التى نراها الآن فى القفص المجاور .. »

قال (علاء) وهو يمدّ ساقيه ليهدئ توتره :

- « هذا هو ما استنتجه (جيديون) فى (سافارى) .. إن ظهور (الكورو) هنا يعنى - دون شك - أن الأمر يتعلق بنشاط لأكل لحوم البشر .. وكان علينا أن نلحق بكم للتحذير أو للإنقاذ .. وإن كنت أشك فى جدوى هذا .. »

قال (شلبى) وهو يسعل :

- « كوخ كوخ ! لقد خدعونا حقًا وأجادوا التمويه ..

فهم يعرفون أن السلطات ستقضى عليهم أو تطردهم لو شاع الأمر .. لذا يعملون فى سرية تامة ، ويحسنون استقبال الغرباء .. إلا - بالطبع - لو أبدوا فضولاً زائدًا أو قدرة على الاستنتاج .. كما حدث معنا .. »

قال (علاء) وهو ينزع شعيرات لحيته فى عصبية :

- « وكما حدث معنا .. لا بد أنهم رأونا ونحن نزيل القاذورات عن رقم الخيمة وفهموا أننا فهمنا .. (برنادت) ! لقد عادت شفتك السفلى تنزف ! »

كان هذا حق .. لأننى عضضتها وأنا أفكّر فى كل الهول القادم .. مسحتها فى كتف قميصى ، وقلت :

- « إذن لهذا يعزلون المرضى خارج القرية .. »

- « حتمًا .. إنهم لا يبغون المزيد من الشوشرة .. ويعتمدون على صعوبة العثور على من يختفى فى هذه الأدغال .. »

تساءل (نظير) وهو يتفقد إناء جلديًا فارغًا :

- « هل يطعمونكم ؟ »

ضحك (شلبى) حتى شرق بالدخان ، وقال :

- « من هذه الناحية فلتطمئن ! يقدمون لنا الكثير جدًا من عجين (الكسافا) والموز المشوى ، ولحم

الثيران .. نفس المعاملة التى يلقاها الدجاج قبل ذبحه .. لقد ازداد وزنى ثلاثة كيلوجرامات فيما أظن .. وهو خطر على صحتى كما تعلم .. »

هنا نهض (بسّام) نافد الصبر ، وقال :

ـ « حسن .. لقد انتهينا من الجانب العلمى للموضوع وبقى الجانب العملى .. لا بد من الهرب .. لكن كيف ؟ »

حقًا .. كيف ؟

★ ★ ★

٢ ـ الأمل الذى لا يخبو ..

من بعيد راحت الطبول تدقّ ..

وسمعنا صوت الجوقة إياه .. يتبادل الرجال والنساء الغناء كالعادة .. لكننا ـ فى هذه المرة ـ كنا نسمعه كأنما هو عواء الشياطين فى آبار الجحيم .. فنحن ـ حتمًا ـ نعرف ما ينتظرنا حين ينتهى الغناء ..

رقصة (جافارا) تجرى على قدم وساق ..

الطبول تدق .. والضحكات المجنونة الشبيهة بضحكات بنات آوى ، أو الضباع تدوّى من الأقفاص المجاورة ، فتضيف إلى التوتر توترًا ..

قلت لـ (جابرييل) فى سخرية سوداء :

ـ « هل تذكر كلامك عن (التابو) ؟ واضح أن هؤلاء القوم لا يؤمنون به .. فلا توجد إهانة للميت أكثر من التهامه ..»

التمعت عيناه الصفراوان فى الظلام وقال :

ـ « أحيانًا يكون التهام الميت لدى القبائل البدائية

هو ذروة التقديس .. فهم يؤمنون أن هذا ينقل سحره لهم ويحميهم من أذاه .. »

ـ « جميل ... »

آه لو قدّر لى أن أصير شبحًا .. لجعلت حياة هؤلاء الأوغاد جحيمًا ، ولما أمن واحد منهم على أهله أو سكنه !

ونظرت نحو (علاء) فوجدته يناول شيئًا لـ (أوشيمو) ، وشيئًا لـ (بسّام) .. لم أتبين ما هو .. ولكن ما أهمية ذلك ؟

وسمعت (بسّام) يسأله :

ـ « فقط ثلاث ؟ »

ـ « لم أجد فرصة لما هو أكثر .. »

لم أجد بدورى فرصة لما هو أكثر .. لأننا لمحنا مشاعل القوم وسمعنا غناءهم .. كانوا عائدين بعد الحفل ..

لقد رأينا هذا المشهد مرارًا من قبل .. لكنها المرة الأولى لـ (علاء) وزملائه ، وعرفنا ما سيلى هذا !

وعلى ضوء المشاعل الرهيب دنا الزعيم فى تؤدة ، يمشى كجنرالات الحرب بين الأقفاص ..

أخيرًا توقف أمام قفصنا .. ولمحت وجهه عكس الضوء كأنه صخرة من الغموض .. ثم قال لأحد رجاله شيئًا ما ، وناوله ما أخذه من قلادة حول صدره ..

دار المفتاح فى القفل .. كريك كلانك !

ثم انفتح الباب ، وأطل الرجل برأسه إلى الداخل ..

شعرت بقلبى يقف .. يثب إلى فمى ، ونظرت إلى ناحية أخرى كى لا يرانى .. لقد تظاهر كل من بالقفص بأنه مشغول بشىء ما ..

لكنى عرفت الحقيقة .. عرفتها بفؤادى قبل أن أسمعها ..

لقد كان يشير إلىّ ويقول بصوته الغليظ الآمر : هذه ! لم أسمعه يقول (هذه) لكن صوته جعلنى أسمع اللفظة مترجمة دون مترجم .

وشعرت بيد غليظة تمسك معصمى ..

صرخت .. توسلت .. زحفت على ركبتى وتمسكت بمعصم (علاء) :

ـ « (علاء) ! لا تدعهم يأخذونى ! اضربهم ! »

لم يكن الوقت مناسبًا للموت فى كبرياء كالملكات .. كنت مذعورة حقًا فاقدة توازنى حقًا ..

- « (علاء) ! أنت تحبنى .. أليس كذلك ؟ امنعهم ! »

حاول التشبث بى ، لكنهم جذبونى بقوة أكثر .. وضربوه بعنف أهوج فسقط على الأرض ، وسمعته يقول فى هستيريا :

- « لا تخافى يا (برنادت) .. كل شىء تحت السيطرة .. كل ..... »

ثم نسى الفرنسية ، فراح يصرخ بالعربية .. ولم أفهم حرفًا ..

كل شىء يتمّ كأنه حلم ..

ضوء المشاعل .. الصخرة بالخارج .. الصخرة الملوثة بدم جاف ..

يريحون عنقى على الحجر .. ما زلت آمل .. هذا ليس حقيقيًا ..

يضعون أداة تثبت رأسى للخلف ..

الجلاد ـ أم هو الزعيم ؟ يرفع سيفه .. أرى القمر المتآكل من وراء الغمام .. أحقًا هو آخر شىء أراه ؟

سينقذوننى .. بالتأكيد سيفعلون .. أليس كذلك ؟

★ ★ ★

فيما بعد عرفت أن (أندرسن) مدّ يده إلى سرواله ، ورفع ثنيته ليخرج شيئًا ما .. وفى الظلام هرع لباب القفص وأطلق ثلاث رصاصات .. حدثت فوضى عامة وسقط الزعيم على الأرض ..

فى اللحظة ذاتها كان (علاء) و(بسّام) و(أوشيمو) يثبون بدورهم إلى باب القفص الموارب ..

ودوّت ثلاث انفجارات مكتومة ..

وصرخ (علاء) وسط الدخان الحارق :

- « اخرجوا إلى الهواء سريعًا ! هذه قنابل مسيلة للدموع ! »

كان هناك جحيم من الدموع والسعال ، وفوضى عامة ..

لكننا استطعنا بعيون محمرة أن نجد بعضنا .. (بودرجا) لم يبرح القفص بعد ، و(نظير) فى مكان ما وسط الدخان ..

لكننا خرجنا ..

أنا تحرّرت من كل من كانوا يكبلوننى ، ورحت أركض لا أكاد أتبين موضع قدمى .. والغاز اللعين يحرق عينى وأغشية أنفى بألف نار .. حقًا لا يمكننى التنفس .. حقًا عاد الدم يسيل من شفتى ..

لكنى كنت سعيدة .. حرة ..

صرخ (شلبى) وهو يشير إلى السماء :

ـ « تماسكوا يا أبنائى ! لقد جاءت النجدة ! »

وفى السماء ـ فوق سحب الدخان ـ كانت هناك ثلاث طائرات هليوكوبتر تسلط كشافاتها على مسرح المعركة ..

وراح (الكيكويو) يهرعون ـ فاقدى الرؤية تقريبًا ـ مبتعدين عن هدير المروحيات الثائرة .. تاركين ضحاياهم بلا عون ..

ووسط الدخان بدأت الوحوش المعدنية تهبط فى الساحة الخالية ، واحدة تلو الأخرى ، واستطاعت العواصف التى أحدثتها المراوح أن تزيح الدخان بعيدًا ..

ورأيت بعينين دامعتين جنودًا سودًا يثبون من الطائرات حاملين بنادقهم الآلية ، وينطلقون نحو القرية ..

على باب الطائرة برز رجل إفريقى ضخم الجثة يرتدى (البيريه) .. وهبط إلى الأرض فى تؤدة ..

اتجه نحونا .. وأدركت أنه ضابط عالى الرتبة ..

ضابط شديد الفخر بنفسه كأغلب الأفارقة حين يهيمنون على مواطنيهم ..

صافح (شلبى) و(بسّام) ثم لوّح للباقين بذراعه ، وقال بصوت غليظ ولهجةٍ إفريقية مميزة :

ـ « يا لها من فوضى ! لقد خشينا أن نجىء متأخرين يا سادة .. »

ثم رأى عدم الفهم فى عيوننا فأضاف :

ـ « أنا اللواء (موتزينجا) .. من السلاح الجوى الكاميرونى .. »

قال (علاء) شارحًا الأمر ، وهو يمنع أنفه من أن يسيل :

ـ « لقد نجح البروفسور (بارتلييه) فى إقناع السلطات بخطورة الموقف ..

ـ « كان لدىّ جهاز إرسال يرسل إشارة كلما مرت ست ساعات .. ومعنى ألا تصله الإشارة أننا نواجه خطر الموت .. بالطبع لم أرسل له شيئًا منذ أربع وعشرين ساعة .. »

سألته وأنا أرتجف رعبًا وإرهاقا :

ـ ولماذا لم تخبرنا ؟ لماذا ضننت علينا بالأمل ؟ »

- « لأنه من الوارد جدًا ألا ينجح فى إقناع السلطات .. والأمل الكاذب شىء قاس حقًا .. »

قال اللواء (موتزينجا) وهو يشعل لفافة تبغ :

- « لقد بذل البروفسور جهودًا خارقة فى الساعات الماضية ، وقد قمنا بالتحليق فوق المنطقة ، لكن الدخان هو ما هدانا إليكم .. الحق أنكم قمتم بعمل لا بأس به .. »

قال (أندرسن) وقد استعاد بروده التقليدى :

- « هذا لا شىء .. لقد قام (علاء) بالنوم بعدما حشا جيوبه بالقنابل المسيلة للدموع ، أما أنا فلم أستطع النوم إلا بعد إخفاء مسدس فى جوربى .. المشكلة هى انتظار اللحظة المناسبة ، وقد منحتها لنا (برنادت) .. »

أضاف (شلبى) وهو يعيد إشعال آخر ثلاثة سنتيمترات من سيجاره :

- « كان هذا سيعطل المتوحشين بعض الوقت ، لكنهم كانوا سيتغلبون على المفاجأة فى النهاية لو لم تصلوا إلينا .... »

كنا فى أسوأ حال .. وبدت لنا طائرات الهليوكوبتر

ملائكة سوف تحملنا إلى النعيم حيث لا (كيكويو) ولا (كورو) ..

وإذ راحت محركات الطائرة تهدر ، سمعت (شلبى) يسأل الجنرال :

- « هل ستبيدون هؤلاء (الكيكويو) ؟ »

قال الجنرال وهو يقدم لفافة تبغ للبروفسور :

- « فى الغالب لا .. سنقوم ببعض حملات تأديبية ثم نقوم بإعادة توطينهم قرب الحدود .. وربما نطردهم إلى (الكونغو) .. »

- كانت طائرة الهليوكوبتر سوفيتية الصنع ، تفتقر إلى وسائل الراحة ، وكان رأسى على الأرض مباشرة يترجرج معها فى كل ثانية ..

لكنى أسلمت عينى للنعاس ..

وحلمت .. حلمت بعوالم لم أرها قط .. عوالم لها رائحة الليل الإفريقى ..

* * *

ما هو مصير (الكيكويو) المفترسين ؟

هل سيعودون لممارسة طقوسهم الدينية الرهيبة ؟

هل ستدوى طبول رقصة الموت من جديد فى قراهم الوليدة ؟

هل ينتهى وباء (الكورو) بعد ما يكفون عن التهام الموتى ؟

كنا نتمنى إجابة هذه الأسئلة .. لكن هذا يبتعد كثيرًا عن نطاق عملنا فى (سافارى) ..

د. برنادت جونز

أنجاواندیری

★ ★ ★





سافارى

مغامرات طبيب شاب يجاهد لكى يظل حيا وكى يظل طبيبا

رقصة الموت

إن الأفارقة يرقصون دومًا .. يرقصون للفرح ويرقصون للحزن .. يرقصون للحب ويرقصون للمقت .. يرقصون للحياة ويرقصون للموت .. ولكن ما سر رقصة الـ (چافارا) هذه ؟ .. ما هو الشىء الرهيب الذى تتجمد له عروقك ، ويملأ لياليك بالكوابيس ؟



د. أحمد خالد توفيق

الثمن فى مصر ١٥٠ ويعادله بالدولار الأمريكى فى سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

العدد القادم
تجربة مُحرَّمة